حسين محمد بافقيه

ما قَبْلَ الأدب الحديث

النُّخبة العالِمة في حائل

أدبي حائل

الانتشار العربي

حسين محمد بافقيه

ما قَبْلَ الأدب الحديث

النُّخبة العالِمة في حائل

ما قَبْلَ الأدب الحديث

النُّخبة العالِمة في حائل

حسين محمد بافقيه

صورة الغلاف : حائل، غيرترود بيل ١٩١٤م

النادي الأدبي بحائل
المملكة العربية السعودية - ص. ب ٢٨٦٥ حائل ٨١٤٦١
هاتف: ٩٦٦١٦٥٤٣٦٤١٨+، فاكس: ٩٦٦١٦٥٤٣٠٩٤٤+
WWW.adabihail.com

الانتشار العربي
ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

:hubafagih@gmail.com
:@hussain_bafagih

ISBN 978-614-404-894-8
الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

إهداء ٩
شُكْر ١١
دِيباجة الكِتَاب ١٣
١ ـ تاريخ يتجدَّد ١٩
ذاكرة الثَّقافة ١٩
الثَّقافة والدَّعوة السَّلفيَّة ٢١
منتجو المعرفة ومستهلكوها ٢٦
عاصمة ثقافيَّة ٣١
نهضة وإصلاح ٣٣
شيخ يقرأ وطالب يستملي ٣٥
خزائن الكُتُب ووقْفها ٣٦
شخصيَّة المكان ٤٢
الثَّقافة العصريَّة ٤٦
العالِم والسُّلطان ٥٠
٢ ـ البحث عنْ أدب ٦٧
رَجْع الصَّدَى ٦٧
كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا ٧٠

لمْ ينضبِ الزَّيتُ ولمْ يُطْفَأ المصباح ٧٤
أدواء النَّحْو ومشكلات اللُّغة ٨٣
أوَّل ديوان مطبوع لشاعرٍ مِنْ نِجْد ٩٠
مائيَّة الشِّعْر ٩٥
ضَعْفُ الثَّقافة ٩٩
ردود وسِجَال ١٠٢
نَظْم العلوم ١٠٤
ميلاد شاعر ١٠٧
معنى «الشَّاعر» ١١١
روحيَّة وتصوُّف! ١١٢
هِبَةُ حائل ١١٩
ثَبَت المصادر والمراجع ١٢٣

إهداء

إلى صديقي الحائليّ النَّبيل

الأديب الأستاذ عبد السَّلام الحميد

كُلَّما خَطَطْتُ حرفًا، قلتُ: لَعَلَّه يُرْضيه..!

شُكْر

ما كان لهذا الكتاب أن يُنْجَز، بعد توفيق الله ـ تبارك وتعالَى ـ لولا مؤازرة أساتذة وأصدقاء، أتاحوا لي خزائن كُتُبهم، فانتخبْتُ مِنْها ما أشاء، مِمَّا له آصرة بموضوع البحث، وكان لكوكبة مباركة مِنْهم فَضْلٌ في تذليل الحُصُول على جمهرة مِنَ المصادر والمراجع مِنْ غير مكتبة مركزيَّة جامعيَّة أوْ مؤسَّسة ثقافيَّة، فلهم مِنِّي أعظم الشُّكر وأَجلُّه.

وأنا مَدِينٌ بأجزل الشُّكر وأعطره للمؤرِّخ الجليل الأستاذ عبد الرَّحمن بن زيد السُّويداء؛ والمؤرِّخ والأستاذ الجامعيّ المرموق الأستاذ الدَّكتور عبد الله السَّيف؛ والصَّديق العزيز الأستاذ محمَّد بن عبد الرَّزَّاق القشعميّ والزُّملاء العاملين في مكتبة الملك فهد الوطنيَّة؛ وأخي المؤرِّخ الجليل الدَّكتور عبد الله بن محمَّد المنيف؛ والأديب والباحث الكبير الأستاذ أحمد الفهد العريفيّ؛ والمؤرِّخ الحُجَّة الدَّكتور حمد العنقريّ، والباحث الثَّبْت الأستاذ مشعل المفضَّليّ؛ وصديقي العزيز النَّاقد الأستاذ جَزَّاع الشَّمَّريّ.

كما أشكر أخي العزيز الدَّكتور نايف المهيلب، رئيس مجلس

إدارة نادي حائل الأدبيّ الثَّقافيّ والأستاذ رشيد الصَّقريّ، وزملاءهما في المجلس والنَّادي، على كرمهم الحاتميّ، واستقبالهم لي في مقرّ النَّادي، غير بعيد مِنْ جبل أجا، في يوم حائليّ بديع، وأنْ أتاحوا لي مكتبة النَّادي، فتخيَّرْتُ مِنْها الجليلَ والثَّرِيّ مِنَ المصادر والمراجع، ثُمَّ أَفَضَلَ النَّادي، مَرَّةً أخرى، حين أخرج هذا الكتاب في هذه الحُلَّة القشيبة.

دِيباجة الكِتَاب

كانتِ النِّيَّة أنْ أكتب كلمة يسيرة عنِ الأدب المعاصر في حائل، فإذا بي أضع كتابًا، وكنتُ كلَّما مضيتُ في الكتابة يُفْتَح لي أفق جديد، فقلتُ: لا بأس! وفي ذلك خير لي أجتنيه حين أنقطع مدَّةً مِنَ الزَّمان ـ لمْ تَطُلْ بحمد الله ـ لأُخرِجَ هذا الكتاب الَّذي بين يديك، بَعْدَ أنْ أنفقْتُ في كتابته ـ ومِنْ قَبْلُ في القراءة والبحث ـ أجمل الأوقات وأسعدها.

وأنا، اليومَ، بَعْدَ أنِ أستوفيتُ ما بَلَغَه عِلْمي وحقَّقه اجتهادي، أحمد اللهَ ـ تبارك وتعالَى ـ على أنْ قَدَّرَ لي هذا القَدَر، وأنْ أُضِيف إلى ما عِنْدي مِنْ يسير العِلْم معرفةً بأصْل الثَّقافة وفضْلها في حائل، أوْ إمارة الجبل، أوْ جبل شَمَّر، أوْ ما شئْتَ مِنْ تلك الأسامي الَّتي تُطْلَق على تلك النَّاحية مِنْ هضبة نَجْدٍ الشَّماليَّة، وهو قَدَرٌ مبارك ـ إنْ شاء الله ـ

حينما زُرْتُ مدينة حائل لأوَّل مرَّة ـ وكان ذلك في سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م ـ تذكَّرْتُ، والطَّائرة تَهْبِطُ في أرض المطار، أُغنيَّة قديمة للفنَّان طلال مدَّاح ـ بَرَّدَ الله مضجعه ـ فجعلْتُ أستعيد لحنها البديع، وكلماتها الجميلة الفاتنة، وأتخيَّل صوت طلال، ورنَّة حرف الرَّاء في صوته السَّاحر:

يـا نـسـمـةْ الـوادي يـا وردةْ بـلادي
حـايـل رُبَـى الـشَّـادي يـا نـرجـسْ وكـادي
حَـيُّـوا جـبـلْ شـمَّـرْ الـزَّهـرْ فـيـه أنـضـرْ
مـا أجـمـل الـمـنـظـرْ يـا مَـرْجَـنـا الأخـضـرْ

* * *

حـايـلْ بَـعَـدْ حَـيِّـي دار الـهـوى الـمـنـشـودْ
يـا عِـزْوتـي وغَـيِّـي فـيـكِ الـزَّمـانْ يـجـودْ
حَـيُّـوا جـبـلْ شـمَّـرْ الـزَّهـرْ فـيـه أنـضـرْ
مـا أجـمـل الـمـنـظـرْ يـا مَـرْجَـنـا الأخـضـرْ

* * *

مِـنْ بـيـنْ أَجَـا وسـلـمـى شُـفْـتَ الـمـهـا تِـفْـتِـنْ
بـيـن الـزَّهـرْ والْـمـا جَـنَّـةْ ربـيـعْ وفَـنّ
حَـيُّـوا جـبـلْ شـمَّـرْ الـزَّهـرْ فـيـه أنـضـرْ
مـا أجـمـلْ الـمـنـظـرْ يـا مَـرْجَـنـا الأخـضـرْ

ولمْ تَكُنِ الأُغنيَّة الَّتي أبدع كلماتها الشَّاعر السُّوريّ مسلم البرازيّ ـ رحمه الله ـ مِنَ الأغاني الوطنيَّة الَّتي يردِّدها النَّاس حينًا مِنَ الدَّهر، ثُمَّ تطويها الأيَّام، ولمْ تَكُنْ، كذلك، أنشودة غرضُها التَّعريف بمدينة، ثُمَّ ينتهي كلّ شيْء. لا.. ما هكذا كانتِ الأُغنيَّة، وما هكذا كان لحنها العجيب المطرب، وما هكذا كان طلال مدَّاح!

كانتِ الأُغنيَّة «تَعويذة» حائليَّة تُردِّدها الألسنة، ولا تَملّ تكرارها وتَردادها. كانتْ تنطوي على سِحْر غريب، ولا يزال لها، حتَّى اليوم، وهي القديمة العتيقة، الوهج نَفْسه، والسِّحْر نَفْسه، كان فيها الشَّوق والوَجْد والعاطفة والشَّجَن، وربَّما كان ذلك سِرَّ استمرارها في الزَّمان.

قلتُ: إنَّ هذه الأُغنيَّة مِنْ أقدم ما غَنَّى طلال مدَّاح، وقَبْلَ أنْ أَعْرِف مدينة حائل مكانًا، عرفْتُها فنًّا يُسْعِد ويُطْرِب ويُشْجي، وكعادة أغاني طلال مع كلّ مَنْ أحبَّ صوته السَّاحر، انطبعتْ هذه الأُغنيَّة في وجداني، طِفلًا فشابًّا فكهلًا فشيخًا! وأنشأتْ تقرِّب ما بيني وبين حائل، وأَحْسَب أنَّ غيري أحسَّ الإحساس نَفْسه، ولا غرابة في ذلك، فالفنّ، مهما تَعَدَّدَتْ أسماؤه، يكون كالمعادل الموضوعيّ للأمكنة والأزمنة والنَّاس والأشياء، وكأنَّه قُدِّر لحائل أنْ تسكن في كلمات مسلم البرازيّ، وألحان طلال مدَّاح وصوته، وكأنَّما لخَّصتْ تلك الأُغنيَّة القديمة ـ بلِ الضَّاربة في القِدَم ـ مدينة حائل، مهما اختلفتْ عليها الأزمنة، ومهما تقلَّبتْ في مسارب التَّرقِّي والنُّهُوض، فظلَّتْ تلك الحبيبة الوادعة وداعة تلك الكلمات، الدَّافئة دِفْء صوت طلال، النَّابضة نبض ذلك اللَّحْن الرَّاقص الشَّجِيّ، فإنْ أراد امرؤٌ تلخيص حائل في كلمة، فدونَه تلك الأُغنيَّة، ففيها خُلاصة المعنى، ورحيق الكلمات!

ربَّما ظننْتَ أيُّها القارئ الكريم أنَّني عَدَوْتُ موضوع كتابٍ أردْتُ مِنْ ورائه دَرْس ثقافة حائل ما قَبْل الأدب الحديث!

والحقُّ أنَّني لمْ أخرجْ على عَقْد الكتابة ولا أُفُق القراءة، فأنا لا أَعْرِف معنًى للفصل بين كلمات تُغَنَّى، وشِعْر يُقْرَأ، فكلاهما يَصْدُران عنْ روح يتأمَّل الكون والحياة، والأُغنيَّة والقصيدة إرث حائل، كما هما إرث الشَّاعر والملحِّن والمغنِّي، بَلْهَ النَّاس الَّذين لا يَعْرِف أحدهم سببًا لتَرداد كلماتها بلسانه وضميره، إلَّا حُبّه للفنّ، وعساه يدرك، لوْ تأمَّل، أنَّ حائلًا باتتْ، دون أن يدري جزءًا مِنْ وجدانه وروحه.

دعوتُ هذا الكتاب **ما قبل الأدب الحديث: النُّخبة العالِمة في حائل**، وكان رجائي، حِين أنشأتُ أكتبه، أنْ أجْلُوَ طَوْرًا مِنْ أطوار التَّاريخ الثَّقافي الَّذي انطوتْ عليه هذه المدينة، ذلك التَّاريخ الضَّارب في القِدَم، منذ أنبأنا امرؤ القيس أنَّ شاعرًا طائيًّا حائليًّا يُدْعَى ابنَ حِذَام[1]، كان قدْ عَلَّمَه، وعَلَّمَ الشُّعراء مِنْ بَعْده، كيف يَقِفون على الأطلال وكيف يبكون الدِّيار

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا

نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامِ

على أنَّني لمْ أشأْ أنْ أَجُوز تاريخها الحديث، فثقافتَها ـ ما قَبْلَ الأدب الحديث ـ أردْتُ، تلك الثَّقافة الَّتي دأبتْ حياتنا الأدبيَّة والثَّقافيَّة في غير بلدٍ عربيّ، في عصرنا الحاضر، على أنْ تُعْرِض

(١) قال ابن سلَّام الجُمَحِيّ: «وهو رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لمْ نَسْمَعْ شِعْرَه الَّذي بَكَى فيه، ولا شِعْرًا غيرَ هذا البيت الَّذي ذَكَرَه امرؤ القيس». طبقات فُحول الشُّعراء، قرأه وشرحه محمود محمَّد شاكر (القاهرة: مطبعة المدنيّ، ١٩٧٤م)، ٣٩/١.

عنها، حتَّى إذا اتَّفق أنْ سِيقَ شيْء مِنْها، على اختلاف البلدان، فليس سوى الإزراء والبَخْس والتَّنديد، وما اضْطُرَّنا إلى ذلك إلَّا تباطؤنا عنِ الدَّرس والبحث والتَّفتيش، واستنامتنا إلى المُعاد والمكرور مِنَ الأحكام والأفكار، دون أن يُكَلِّف أحدنا نَفْسه، فيَفْرغ، حِينًا مِنَ الدَّهْر، للوقوف على آثارها، وقراءتها على وَفْق ما يتقاضاه العصْر الَّذي تعتزي إليه.

أرجو أنْ أكون قدْ وُفِّقْتُ إلى الغاية الَّتي أردْتُ، سائلًا الله ـ تبارك وتعالَى ـ أن يُجَنِّبَني اللَّغْو والخَطَل، وأن يَنْفَع به.

والحمدُ لله في الأُولَى والآخِرَة.

حسين محمَّد بافقيه

جدَّة ـ ضاحية أبحر الشَّماليَّة
٢٦ مِنْ شهر ربيع الآخر سنة ١٤٣٧هـ

١ ـ تاريخ يتجدَّد

ذاكرة الثَّقافة

لا تسعفنا المصادر التَّاريخيَّة في تعَرُّف الحياة الثَّقافيَّة والأدبيَّة في حائل، بلْ لا تسعفنا تلك المصادر في الوقوف على شيْء مِنْ حياة تلك المدينة قبل القرن الثَّاني عشر الهجريّ = القرن الثَّامن عشر الميلاديّ، ومهما تَقَصَّى الباحثون، ومهما فتَّشوا، فإنَّهم لمْ يمسكوا بأثر ذي بال قبل ذلك القرن، وربَّما ابتهجوا متى وقعوا على خبر هنا، وخبر هناك، يستثيرونه، ويستنطقونه، فعسى أن يكشف عنْ مخبَّآت تلك الناحية مِنْ جزيرة العرب، يُضيفونها إلى ما تراكم مِنْ تاريخها القديم[١]، وقدْ كان تاريخًا له شأنه وخطره في حياة العرب منذ أقدم العهود والأزمنة، ولا أُراني أقول إلَّا معارًا أوْ معادًا مِنْ قولنا مكرورًا، إنْ أنا سردْتُ ما يعرفه أبناء تلك النَّاحية، وما يعرفه القارئ العربيّ، عمَّا كان لقاطني إمارة الجبل مِنْ شِعْر شاعرٍ، ومآثر،

(١) لمعرفة أوسع عنْ تاريخ حائل في القديم والحديث، يُنْظَر: العريفيّ، فهد العليّ. **حائل** (الرِّياض: الرِّئاسة العامَّة لرعاية الشَّباب، سلسلة هذه بلادنا، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)؛ السُّويداء، عبد الرَّحمن بن زيد. **منطقة حائل عبر التَّاريخ** (الرِّياض: دار السُّويداء للنَّشر والتَّوزيع، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م).

هي في أسمَى درجات المروءة، إنْ عُدَّتْ فضائلها، حتَّى بات حاتم الطَّائيّ رمزًا يتيه به العربيّ، إنْ أراد حديثًا في الجُود والكرم وجليل الأخلاق.

والحقّ أنَّ ما نَزَلَ بحائلٍ لمْ يكنْ أمرًا اخْتُصَّتْ به، دون سواها مِنْ نواحي الجزيرة العربيَّة، فسُحُب الصَّمت الَّتي أطبقتْ على تاريخها، نراها في حائل، كما نراها في بلدات في نجْد، والحجاز، وتهامة، وعسير، والمخلاف السُّليمانيّ، والأحساء، والقطيف، منذ اتَّخذتِ الخلافة الكوفة فدمشق فبغداد عواصم لها، فلمْ تلبثِ الجزيرة العربيَّة، بعد حين يطول أوْ يقصر، أنْ توارتْ عنِ الأنظار، شيئًا فشيئًا، ثُمَّ إذا بالتَّدوين التَّاريخيّ يسكت عنها، فيلفُّها صمت طويل، حتَّى قُبَيْل مشارف العصر الحديث، إلَّا ما كان مِنْ شأن المدينتين المقدَّستين، مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، في حديث يطول، ليس هنا محلّ بيانه[1].

إذنْ لمْ يعرفِ المؤرِّخون شيئًا كبيرًا عنْ تاريخ حائل، قبل القرن الثَّاني عشر الهجريّ، وإنَّ ما أسعفهم به تاريخ ذلك القرن لمْ يَتَعَدَّ، في خير حالاته، وثائق نادرة سلمتْ مِنْ عوادي الزَّمن، أوْ نقْش على عتبة بيت قديم متهالك، أوْ غار في جبل[2]، أوْ شاهد قبر[3]، أوْ ما اكتنزتْه ذاكرة أشياخها ومُعَمَّريها مِنْ أنباء

(١) محلّ ذلك كتاب حمد الجاسر **مؤرِّخو نَجْد مِنْ أهلها** (الرِّياض: مركز حمد الجاسر الثَّقافيّ، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م)، ص ص ٩ ـ ١٣.

(٢) العريفيّ، أحمد الفهد. **مقامات حائليّة** (الرِّياض: المؤلِّف، مطابع النَّاشر العربيّ، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م)، ١/ ١٠٠ ـ ١٠٥.

(٣) العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ١/ ٢٤٣ ـ ٢٧٧.

تَوارَثَها السَّلَف عنِ الخَلَف[1]، والأبناء عن الآباء والأجداد، ويدخل في ذلك ما تَحَدَّر إلينا مِنْ شِعْر عامِّيّ، فيه إلماحة إلى وقْعةٍ هنا، ووقعةٍ هناك، وربَّما انطوتْ أبياته على حادثة أوْ كائنة، ولعلَّنا نُمْسِك في أثنائه بأثارة مِنْ خبر يُنْبِئ عنْ حكمة أوْ مَثَل يقوداننا إلى قصة أوْ أُحدوثة، وإنَّ الباحث في تاريخ حائل وغير بلدةٍ مِنَ البلدات النَّجْديَّة لا يستطيع أن يَطَّرِح الشِّعْر العامِّيّ، ولا القصص الشَّعبيّ المتوارث، ولا الأسطورة، ولا الخرافة، متى أراد تاريخًا للحوادث، إلى أن يَجود التَّاريخ بما يُجَلِّي تلك العتمة الَّتي احلولكتْ وطال ظلامها[2].

الثَّقافة والدَّعوة السَّلفيَّة

ويستطيع الباحث أن يُرْجِع، وهو مطمئنٌّ، ما نعرفه مِنْ تاريخ حائل في عصرها الحديث، إلى ذلك العهد الَّذي عرفتْ فيه نَجْدٌ الدَّعوة السَّلفيَّة، وحين آذنتْ تلك الدَّعوة بنشوء إمارة الدِّرعيَّة، أوْ ما عُرِفَ، بعد ذلك، باسْم الدَّولة السُّعُوديَّة الأولى، وأظهر ما في تلك

---

(١) العريفيّ، أحمد الفهد. **علماء لُبدة، طرف مِنْ أخبارهم وآثارهم** (الرِّياض: المؤلِّف، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م)، ص ١٦. وفي كتاب **مقامات حائليَّة أمثلة** وافرة لتلك المرويَّات.

(٢) عَدَّ عبد الله الصَّالح العثيمين الشِّعْر الشَّعبيّ «النَّبطيّ» مصدرًا مِنْ مصادر كتابه **نشأة إمارة آل رشيد** (الرِّياض: عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الرِّياض، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م)، ص ص ل م، ونلقى الأمر نفْسه في أطروحة حمد بن عبد الله بن سلطان الحمَّاد العنقريّ **حُكْم محمَّد العبد الله بن رشيد لنَجْد ١٢٨٩ ـ ١٣١٥هـ = ١٨٧٣ ـ ١٨٩٧م** (الرِّياض: جامعة الملك سُعُود، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م) ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ ص ٩.

الدَّولة ذلك التَّحالف الَّذي أمضاه الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب، صاحب الدَّعوة السَّلَفِيَّة، والأمير محمَّد بن سعود، أمير الدِّرعيَّة سنة ١١٥٧هـ = ١٧٤٤م[١]، وعند ذلك، يستطيع الباحث، ويستطيع المؤرِّخ أن يُشَارِفا تاريخًا مدوَّنًا شمل نجْدًا والجزيرة العربيَّة كلّها، ويعنينا، هنا، ما له آصرة بحائل، تلك المدينة الَّتي تقع في شماليّ نَجْد.

ينبئنا التَّاريخ أنَّ إمارة حائل عَنَتْ لسطوة الدَّولة السُّعُوديَّة الأولى سنة ١٢٠١هـ = ١٧٨٦م، في عهد حكَّامها مِنْ آل عليّ[٢]، وأنَّ الأمير فيصل بن تركيّ عَزَلَ حاكم إمارة الجبل صالح بن عليّ، وعَهِدَ إلى عبد الله بن عليّ بن رشيد بإمارتها[٣]، سنة ١٢٥٠هـ = ١٨٣٤م[٤]، وأنَّ الحكم استمرَّ في آل رشيد حتَّى انتزعها الملك عبد العزيز منهم سنة ١٣٤٠هـ، ومنذ ذلك التَّاريخ أخذنا نَظْهر على طَرَف، كبير أوْ صغير، مِنَ الحياة العِلْميَّة والثَّقافيَّة، ونستطيع أنْ نَرُدَّ ذلك إلى أثر الدَّعوة السَّلَفِيَّة في نهوض

---

(١) العثيمين، عبد الله الصَّالح. **تاريخ المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة** (الرِّياض: الأمانة العامَّة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م)، ١/ ٨٦.

(٢) العثيمين، عبد الله الصَّالح. **نشأة إمارة آل رشيد**، ص ٧.

(٣) أظهر عبد الله بن عليّ بن رشيد بسالة في استرداد فيصل بن تركيّ الإمارة في الرِّياض، بعد أنِ استولى عليها مشاري بن عبد الرَّحمن، فكافأه فيصل بن تركيّ بتعيينه حاكمًا على حائل. حمزة، فؤاد. **قلب جزيرة العرب** (الرِّياض: مكتبة النَّصر الحديثة، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م)، ص ٣٥٠.

(٤) المشهور في المصادر أنَّ التَّاريخ هو سنة ١٢٥١هـ، لكنَّ التَّاريخ الَّذي تذكره الوثائق المحلِّيَّة المعاصرة هو سنة ١٢٥٠هـ. العريفيّ، أحمد الفهد. **مقامات حائليَّة** (الرِّياض: المؤلِّف، مطابع النَّاشر العربيّ، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م)، ٢/ ٤٣.

العِلْم والأدب والثَّقافة في غير ناحية مِنْ نواحي نَجْد، وكان مِنْ تلك النَّواحي إمارة الجبل[1]، تلك الَّتي ذاد أمراؤها مِنْ آل عليّ، أوَّلًا، وآل رشيد، آخِرًا، عنْ حِمَى هذه الدَّعوة، وتعصَّبوا لها، وأنشأوا يَصْدرون عنْ حدودها ورسومها[2].

كانتْ دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب دينيَّة، لُحْمتُها بَعْث ما عليه السَّلَف، وسَدَاها أَخْذُ النَّاس بذلك، وكان أئمَّة الدَّعوة وشيوخها وطلبة العِلْم يقرأون كُتُب السَّلَف، وينسخون، ويؤلِّفون[3]، ويعلِّمون، ويبلِّغون الدَّعوة للنَّاس، في البلدات والقرى والبوادي[4]، وأصبح العِلْم الدِّينيّ علامة تلك الحِقْبة،

---

(١) العثيمين، عبد الله الصَّالح. **نشأة إمارة حائل**، ص ٢؛ المفضليّ، مشعل بن مهجِّع. **الصِّلات الحضاريَّة بين جبل شمَّر وجنوبيّ العراق، دراسة تاريخيَّة في الجوانب الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعِلْميَّة والثَّقافيَّة ١٢٥٠ ـ ١٣٤٠هـ = ١٨٣٥ ـ ١٩٢١م** (بيروت: جداول للنَّشْر والتَّرجمة والتَّوزيع، ٢٠١٤م)، ص ٢٥٧.

(٢) فالين، جورج أوغست «عبد الوليّ». **رحلات فالين إلى جزيرة العرب**، ترجمة سمير سليم شبليّ، راجعها يوسف إبراهيم يزبك (لندن: دار الورَّاق، ٢٠٠٩م)، ص ١٤٥؛ الرُّديعان. حسَّان بن إبراهيم. **منبع الكرم والشَّمائل في ذِكْر أخبار وآثار مَنْ عاش مِنْ أهل العِلْم في حائل** (حائل: مكتبة فهد العريفيّ، ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩م)، ٣٠.

(٣) المنيف، عبد الله بن محمَّد. **صناعة المخطوطات في نجْد ما بين منتصفَي القرنين العاشر حتَّى الرَّابع عشر الهجريَّين** (عمَّان: أروقة للدِّراسات والنَّشْر، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م).

(٤) العيسى، ميّ بنت عبد العزيز. **الحياة العِلميَّة في نَجْد منذ قيام دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب وحتَّى نهاية الدَّولة السُّعوديَّة الأولى** (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ)، ص ٢٨١؛ البسَّام، أحمد عبد العزيز. **الحياة العِلْميَّة في وسط الجزيرة العربيَّة في القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر الهجريَّين وأثر دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب فيها** (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م)، ص ٣٣٢.

وأصبح «المثقَّف» ـ إذا جاز أنْ نصطنع هذه المفردة الحديثة ـ هو مَنِ انتحل تلك الدَّعوة، وأنفق عمره في تبصرة النَّاس، يقرأ كُتُب السَّلَف، ويُدَرِّسها في المسجد والمكتب، ولا يخرج عنْ حدودها حين يكتب، ولا يَحِيد عنها حين يخطب، ونشأ النَّاس وليس في خيالهم معبِّرٌ عنِ العِلْم والمعرفة إلَّا مَنْ أصاب مِنْ عِلْم الدِّين حظًّا كبيرًا أوْ صغيرًا، سواء أكان قاضيًا يَفْصل بين الخُصُوم، أوْ فقيهًا عالِمًا، أوْ محدِّثًا، أوْ قارئًا للقرآن الكريم حافظًا، أوْ إمامَ مسجدٍ أوْ مؤذِّنَه، أوْ واعظًا، أوْ طالبًا مِنْ طلبة العِلْم الَّذين انتشروا في القرى والبلدات، بأزيائهم المعروفة، وسمتهم المألوف، فهؤلاء هم الَّذين نستطيع أنْ نَعُدَّهم منتجي المعرفة ومستهلكيها في آنٍ واحد، كان ذلك في إقليم العارض، وما جَاوَرَها مِنْ بلدات، وكان، كذلك، في حائل[1]، وتستطيع، إنْ أردتَ مُجَاوَزة نَجْدٍ ودعوتها السَّلَفِيَّة، أنْ تَلْقَى مَشَابِهَ له، حيث سِرْتَ في بلاد الإسلام، مشرقًا ومغربًا، فعالِم الدِّين، ومَن يتَّصِل بالدِّين بسبب، كان المعبِّر عنِ العِلْم والثَّقافة، إليه يفزع النَّاس في جليل الأمور وصغيرها، وما عليهم إنْ ساروا على نهجه، ورأوا فيه القدوة والمَثَل

> كان العلماء يكوِّنون ذلك الجزء مِنَ المجتمع الإسلاميّ المثقَّف في الآداب، والشَّريعة، والعقائد الإسلاميَّة. لقدْ كانوا قضاةً، ورجالَ قانون، وأئمَّةً، وفقهاءَ،

(١) ڤالين، جورج أوغست. المرجع السَّابق، ص ١٤٨؛ المفضَّليّ، مشعل. المرجع السَّابق، ص ٢٥٨.

ومدرِّسين، وحَفَظَةَ القرآن الكريم، ورواةً للأحاديث الشَّريفة، ومتصوِّفين، وخدمَ مساجد، وهكذا دواليك[1]

وأقدم أثرٍ مِنْ آثار الثَّقافة في حائل مَدِين إلى العِلْم الدِّينيّ والمنتسبين إليه، وابحثْ، إنْ أسعفتْكَ المصادر التَّاريخيَّة، عنْ أثر يتَّصل بالثَّقافة والتَّعليم والمعرفة، مُنْبَتّ الحبل عنِ الدِّين وأهْله، فإنَّك ستستهلك جهدك دون أنْ تظفر بمُنْيَتك، والتَّاريخ الَّذي سَكَتَ عنْ حائل، فلمْ ينبئنا عنْ حركة للعِلْم والثَّقافة، تسبق عهد الدَّعوة السَّلَفِيَّة، هو نفْسه الَّذي يخبرنا أنَّ التَّعليم وأنَّ المعرفة وأنَّ الثَّقافة لا نقف على شيْء مِنْ كلّ أولئك إلَّا بعد أنِ انتحلتْ حائل تلك الدَّعوة، فكان التَّعليم وكانتِ المعرفة وكانتِ الثَّقافة تعبيرًا عنِ الدِّين؛ أصوله وفروعه، ومهما أردتَ فلنْ تَجِدَ أثرًا إلَّا كان للدِّين وأهله صلة به.

وتمدُّنا الكُتُب الَّتي ترجمتْ للعلماء وطلبة العلم في نجْد، وفي حائل خاصَّةً، بجمهرة مِنَ الأسماء، بعضهم كان مِنْ أهلها، وبعضهم وَفَدَ عليها ونَزَلَ على أهلها، وهؤلاء وأولئك علماء وطلبة عِلْم، وكلُّهم يدور في فلك دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب السَّلَفيَّة، وفي فلك كُتُب الدَّعوة الَّتي نُشِرَتْ بالسَّيف وبالقلم، وكان لها أتباع وأشياع، كما كان لها أخصام وأعداء.

---

(١) لابدوس، إيرا. **مُدُن إسلاميَّة في عهد المماليك**، ترجمة عليّ ماضي (بيروت: الأهليَّة للنَّشر والتَّوزيع، ١٩٨٧م)، ص ١٨٢.

منتجو المعرفة ومستهلكوها

ولا تختلف حائل عنْ سواها مِنْ بلدات وسط نجْد، بلْ إنَّها لا تختلف عنْ سواها مِنَ العواصم الإسلاميَّة، فرجال العِلْم الدِّينيّ، هنا وثَمَّةَ، نستطيع أنْ نحصرهم في القُضَاة، والفقهاء، والمحدِّثين، وقرَّاء القرآن الكريم، وحُفَّاظه، وأئمَّة المساجد، وخطبائها، ومؤذِّنيها. ومع ذلك فثمَّة ما ينبئ عنْ أنَّ هناك فروقًا عِلْميَّة تفصل بين فئة وفئة، وعادةً ما تَنُصّ كُتُب تراجم العلماء على ذلك، والَّذي يَظْهر أنَّ كلمة «عالِم» لمْ تكنْ لتُطْلَق إلَّا على طائفة بعينها مِنَ المشتغلين بالعِلْم الشَّرعيّ، ويَجْلُو لنا كتاب **زهر الخمائل في تراجم علماء حائل** لعليّ بن محمَّد الهنديّ ـ وهو أقدم كُتُب تراجم العلماء في نَجْد ـ شيْئًا مِنْ تلك الفُرُوق. نَعَمْ هو لا ينصّ عليها في مقدِّمته، ولكنَّنا نَظْهر عليها في أثناء ترجماته، فالرَّجُل لا يساوي بين المترجَم لهم، وهم، عنده، ليسوا سواء، فالهنديّ لا يُسْمِح في إطلاق لقب «الشَّيْخ» على كلّ مَنْ له في كتابه ترجمة، ونَعْرِف، مِنْ تراجمه المختصرة، أنَّ هذا اللَّقب لا يُطْلَق إلَّا على مَنِ استجمع العِلْم الدِّينيّ وتَضَلَّع مِنْه، كالفقهاء والمفتين، والقُضاة، ونراه في غير موضع، يسوق الاسم غير مسبوق بلقب «الشَّيخ»، وعادةً ما يكون صاحب تلك التَّرجمة قارئًا للقرآن الكريم، أوْ مدرِّسًا، هذا والرَّجل حريص، في كلّ كتابه، على أن يميِّز بين القاضي والفقيه والمحدِّث ومقرئ القرآن والمدرِّس وإمام المسجد،

فسالم الشَّلش المتوفَّى سنة ١٣١٠هـ «يُعَدّ مِنْ طلبة العِلْم»[١]، ويعقوب بن محمَّد بن سعد، المتوفَّى سنة ١٣٢٠هـ «لمْ يَلِ قضاءً... وكان حسن الصَّوت بالتِّلاوة، حافظًا للقرآن»[٢]، والشَّيخ سالم بن محمَّد الحِجّيّ المتوفَّى سنة ١٣٢٤هـ «كان عالِمًا دينيًّا فصيحًا»[٣]، والشَّيخ عبد العزيز بن صالح المرشديّ المتوفَّى سنة ١٣٢٤هـ «كان عالمًا متبحِّرًا في العِلْم»[٤]، وحمَّاد الجار الله الحمَّاد المتوفَّى سنة ١٣٢٦هـ «كان إمامًا لمسجد الجبارة»[٥]، وصالح بن سليمان القريشيّ المتوفَّى سنة ١٣٢٧هـ «كان حافظًا مجوِّدًا محبًّا للعِلْم والعلماء»[٦]، وسليمان بن مبارك الشَّاعر المتوفَّى سنة ١٣٢٨هـ «كان حافظًا مجوِّدًا حسن التِّلاوة»[٧]، والشَّيخ صالح بن سالم بن محسن آل بنيَّان المتوفَّى سنة ١٣٣٠هـ «الشَّيخ العالِم العامِل»[٨]، والشَّيخ سليمان بن محمَّد الدُّهَيْشيّ المتوفَّى سنة ١٣٣٨هـ «كان واعظًا يحفظ كثيرًا مِنَ الأحاديث طَوَّافًا في القرى والضَّواحي يدعو إلى الله»[٩]، والشَّيخ

---

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. **زهر الخمائل في تراجم علماء حائل** (جدَّة: مطابع دار الأصفهانيّ، ١٣٨٠هـ)، ص ١٠.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٠.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١١.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١١.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٢.
(٦) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٢.
(٧) الهنديّ، عليّ بن محمَّد، المرجع السَّابق، ص ١٢.
(٨) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٢.
(٩) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٥.

عبد الله بن مسلم التَّميميّ المتوفَّى سنة ١٣٤١هـ «كان آيةً في فقه الحنابلة مع تحصيل في سائر العلوم»[١]، وحسن بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى سنة ١٣٤٣هـ «كان وَسَطًا بالفقه والفرائض والعربيَّة»[٢]، والشَّيخ سالم بن صالح بن سالم البنيَّان المتوفَّى سنة ١٣٦٦هـ «اجتهد في التَّحصيل حتَّى عُدَّ مِنَ العلماء»[٣]، والشَّيخ عمر اليعقوب المحمَّد السَّعد المتوفَّى سنة ١٣٦٦هـ «تولَّى خطابة الجمعة والعِيدَين قرابة خمسين سنة»[٤]، والمقرئ الشَّيخ عليّ بن محمَّد الشَّاميّ المتوفَّى سنة ١٣٦٩هـ «تولَّى مدرسة أخيه شكر بعد موته... [و] تولَّى إمامة مسجد عيسى بعد موت الأخير»[٥]، والشَّيخ حمود الحسين الشَّغدليّ «شيخنا العلَّامة عُمدة الطَّالِبين وقُدوة الصَّالحين... اجتهد وحَصَّلَ حتَّى صار مِنْ أكابر العلماء وفُحُولهم»[٦]، والشَّيخ عبد الرَّحمن بن سليمان المَلَق «يُعَدّ مِنْ أكابر العلماء بحائل»[٧].

ونقرأ في يوميَّات الرَّحَّالة تشارلز هوبر عنْ رحلته إلى حائل سنة ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤م ما يقوّي ما ذهبنا إليه، فالشَّيخ محمَّد بن راشد الغنيميّ «هو الوحيد في حائل الَّذي يلقَّب

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٦.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٦.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢١.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢١.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٢.
(٦) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٣.
(٧) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٣.

بالشَّيخ»[1]، ويشاركه في هذا اللَّقب كلٌّ مِنَ الشَّيخ عوض الحِجّيّ والشَّيخ عبد الله بن مَرْعِيّ[2].

وربَّما كان مِنَ السَّائغ أنْ لا يستوي أهل العِلْم الشَّرعيّ وطلبته في الرُّتبة، فما كلُّهم سواء، فمِنْهم مَنْ كان يكتفي بقليل العِلْم يبتغي به وظيفة يرتزق بها، ومِنْهم مَنِ انقطع إلى العِلْم مدَّةً طويلة، يرحل إلى المواضع الَّتي فيها علماء، يَسْمع عنهم، ويلازمهم، وينفق حياته كلَّها، يَدْرس وينسخ ويأخذ العِلْم مِنْ أفواه الشُّيوخ، حتَّى إذا كان له ذلك، عُدَّ في العلماء، قاضيًا، أوْ مفتيًا، أوْ إمامًا، أوْ خطيبًا، يختلف إليه العلماء وطلبة العِلْم، ويتصدَّر للتَّدريس وتبصرة النَّاس، دون أن ينقطع عنِ الدِّراسة والتَّحصيل.

ولمْ أَظْهرْ فيما بين يديَّ مِنْ مصادر، على المُدَّة الَّتي يقضيها طالب العِلْم حتَّى يُصبح قاضيًا أوْ مفتيًا أوْ عالِمًا ذا شأن، وأغلب الظَّنّ أنَّها لا تختلف إلَّا بعض اختلاف عمَّا سواها في غير صُقْع مِنْ أصقاع المسلمين، في القديم والحديث[3]، لكنَّها، مهما

---

(١) البادي، عوض. **الرَّحَّالة الأوربِّيُون في شمال وسط الجزيرة العربيَّة، منطقة حائل ١٨٤٥ ـ ١٩٢١م** (حائل: نادي حائل الأدبيّ الثَّقافيّ، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م)، ٢/ ٥٧٩.

(٢) البادي، عوض. المرجع السَّابق، ٢/ ٥٨٠.

(٣) مقدسيّ، جورج. **نشأة الكُلِّيَّات: معاهد العِلْم عند المسلمين وفي الغرب**، نَقَلَه إلى العربيَّة محمود سيِّد محمَّد (القاهرة: مدارات للأبحاث والنَّشر، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م)، ص ص ١٧٢ ـ ١٧٥؛ غب، هاملتون، وهارولد باون. **المجتمع الإسلاميّ والغرب**، ترجمة أحمد إيبش (أبوظبي: هيئة أبوظبي للسِّياحة والثَّقافة، دار الكُتُب الوطنيَّة، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٢م)، =

اختلفتْ، لا تعدو هذه المراحل الثَّلاث «مرحلة الأخْذ والتَّحصيل أو الإعداد العِلْميّ، ثُمَّ مرحلة التَّصدِّي للوظيفة العِلْميَّة والدِّينيَّة أو القضائيَّة، وأخيرًا إعادة إنتاج العِلْم مِنْ خلال التَّدريس وإعداد الرَّسائل والمصنَّفات والشُّروح أو المؤلَّفات»[1].

ومِمَّا يعضد ذلك ما نقله محمَّد بن ناصر العبوديّ عنِ المُدَّة الَّتي قضاها الشَّيخ محمَّد بن عبد الله بن سليم، قاضي بريدة، في طلب العِلْم. فبعد أنْ أَتَمَّ حفظ القرآن الكريم، في وقت مبكِّر، وقرأ على جماعة مِنَ الشُّيوخ في القصيم، رحل إلى الرِّياض والتحق بالشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن آل الشَّيخ، ولازمه مُدَّة اثني عشر عامًا، لمْ يَعُدْ فيها إلى أهله[2]، ولَمَّا مَرَّ بشقراء، في طريقه مِنَ الرِّياض، لازم الشَّيخ عبد الله بن عبد الرَّحمن أبابطين سنتين أوْ أكثر[3].

عرفتْ حائل حركة علميَّة وثقافيَّة محدودة بحُدود الدِّين، بلْ لمْ تَخْرجْ عنْ رسوم الدَّعوة السَّلفيَّة، ومنذ أنِ انضوتْ تحت لواء الدَّولة السُّعُوديَّة الأولى، باتتْ تستمدّ حياتها مِنَ الدِّرعيَّة، أوَّلًا،

= ١٢٦/٢ ـ ١٢٧؛ حَنَّا، نِلّلي. **ثقافة الطَّبقة الوسطى في مصر العثمانيّة**، ترجمة رؤوف عبَّاس (القاهرة: مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، ٢٠٠٤م)، ص ١١٦.

(١) زيادة، خالد. **كاتب السُّلطان: حِرفة الفقهاء والمثقَّفين** (لندن ـ قبرص: رياض الرَّيِّس للكُتُب والنَّشر، ١٩٩١م)، ص ٦٤.

(٢) العبوديّ، محمَّد بن ناصر. **معجم أسر بريدة** (الرِّياض: دار الثَّلوثيَّة للنَّشر والتَّوزيع، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م)، ٦٦/١٠.

(٣) العبوديّ، محمَّد بن ناصر. المرجع السَّابق، ٦٧/١٠.

ومِنَ الرِّياض، آخِرًا، يُرْسَل إلى أهلها القُضاة مِنْ خارج مدينتهم[1]، ويفد عليهم علماء الدَّعوة، فيختلف إليهم علماء حائل وطلبة العلم فيها.

وفي كُتُب تراجم علماء نجْد الَّتي ترجم أصحابها لنفر مِنْ أهل العِلْم في حائل، نعرف ما أصاب حياة النَّاس فيها مِنْ تحوُّل، فالقضاة الوافدون عليها، والقضاة مِنْ أهلها، والفقهاء والمحدِّثون والقُرَّاء، كلُّ أولئك ضَرَبَ بسهم وافر في تعليم النَّاس[2]، ويستجلب النَّظر تلك الوفرة مِنْ تراجم العلماء الحائليِّين، في الكُتُب الَّتي عُنِيَ فيها مؤلِّفوها، مِنْ أهل حائل، بحركة العِلْم والثَّقافة في مدينتهم، وهي، على كلّ حال ثرَّة وافرة.

عاصمة ثقافيَّة

وكلَّما تقدَّم بنا الزَّمان صُعُدًا اتَّسعتِ الثَّقافة وما يتَّصل بها مِنْ ضُرُوب المعرفة والتَّعليم، ولا يماري أحد في أنَّ إمارة الجبل أصبحتْ في عهد محمَّد بن عبد الله بن رشيد (١٢٨٩ ـ ١٣١٥هـ = ١٨٧٣ ـ ١٨٩٧م) أشبه بعواصم الثَّقافة مِنْها إلى عامَّة المدن، وبعد أنْ ضَمُرَ تأثير الرِّياض، عَقِبَ الخلاف الَّذي نشب بين أولاد فيصل بن تركيّ، فتنازعوا وطال نزاعهم، فاقتتلوا[3]، ضَعُفَ

---

(١) العثيمين، عبد الله الصَّالح. **نشأة إمارة آل رشيد**، ص ص ١٤، ١٧. ومِنَ المعتاد أن يُختار القاضي مِنْ بين أكثر العلماء مقدرةً واستقامةً. بوركهارت، جون لويس. **ملاحظات عن البدو والوهَّابيِّين**، ترجمه وعَلَّق عليه عبد الله الصَّالح العثيمين (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٤هـ)، ص ٣٩٤.

(٢) المفضليّ، مشعل. المرجع السَّابق، ص ٢٥٧.

(٣) حمزة، فؤاد. المرجع السَّابق، ص ٣٥٢.

سلطانهم، فاغتنم محمَّد بن عبد الله بن رشيد الفرصة، وامتدَّتْ يده إلى مواقع نفوذ السُّعُوديِّين، وبَسَطَ سُلطانه على غير ناحية مِنْ نَجْد، حتَّى ظفر، أخيرًا، بالرِّياض، وكان ذلك سنة ١٣٠٨هـ=١٨٩٠م[١]، وحِين استتبَّ الأمر له، تبدَّل مِنْ أمْر نجْد ما تبدَّل، واختلفتْ على تلك النَّاحية مِنْ جزيرة العرب صُرُوف السِّياسة، فحائل الَّتي كانتْ تتلقَّى الأوامر والمراسيم مِنَ الرِّياض، حاضرة آل سعود، أصبحتْ، آنئذٍ، صاحبة الحَوْل والطَّوْل، أمَّا الثَّقافة، وأمَّا حِلَق العِلْم ودروس المشايخ، فأنشأ العلماء وطلبة العِلْم، مِنْ نواحي نجْد، يشدُّون الرِّحال إلى إمارة الجبل[٢]، العاصمة الجديدة لنجْد، يَبُثُّون علومهم في أبنائها، وجُلِبَتْ إليها الكُتُب[٣]، المخطوط منها والمطبوع[٤]، وذاع شأن معاهد العِلْم فيها، وبالأخصّ مسجداها الجامعان في برزان ولُبْدة[٥]، وفي

---

(١) الزِّرِكْليّ، خير الدِّين. **شِبْه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز** (بيروت: دار العِلْم للملايين، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م)، ١/ ٥٥.

(٢) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ١٢٣.

(٣) الدَّخيل، سليمان بن صالح «نَجْد»، مجلَّة لغة العرب، تمُّوز ١٩١١م، ص ص ١٦ ـ ٢٥، في: عجيل، محسن غيَّاض. **سليمان بن صالح الدَّخيل النَّجْديّ، الصَّحفيّ، السِّياسيّ، المؤرِّخ** (بيروت: الدَّار العربيَّة للموسوعات، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م)، ص ٤٩.

(٤) وفي حديث الرَّحَّالة يوليوس أويتنغ أنَّ ناصر السَّبهان امتلك نسخة مِنَ **القاموس المحيط** للفيروزباديّ، مِنْ مطبوعات مدينة لكناو الهنديَّة، في العام ١٢٩٨هـ، وكانتْ قدِ اشتُرِيَتْ مِنْ مكَّة المكرَّمة. البادي، عوض. المرجع السَّابق، ٢/ ٧٠٦، وكان أويتنغ قدْ جلب نسخة مِنْ كتاب عنِ النَّبيّ ﷺ للقسطلّانيّ، مِنَ القاهرة للشَّيخ جار الله الحمَّاد. ٢/ ٧٠٥.

(٥) موزيل، ألويس. **عن التَّاريخ المعاصر لشبه الجزيرة العربيَّة**، ترجمة محمود كبيبو (لندن: دار الورَّاق، ٢٠٠٩م)، ص ٤٨.

أروقة هذين المسجدين تخرَّج علماء حائل وطلبة العِلْم فيها، فلمْ تكنْ في حائل مدارس، في ذلك العهْد، فاتُّخِذَ المسجد مكانًا للدَّرْس، فوق ما هو مكان للعبادة، كما أنَّ بيوت العلماء والمشايخ كانتْ أَشْبَهَ بالمدرسة تُلْقَى فيها الدُّروس، ويختلف إليها طلبة العِلْم.

وعسى أن يقترن نهوض حركة العِلْم الدِّينيّ فيها، بوفادة مفتي نَجْد الشَّيخ عبد الله بن عبد اللَّطيف آل الشَّيخ عليها سنة ١٣٠٨هـ[١]، وكان الشَّيخ قدْ أقام في لُبْدة، وانتصبَ للتَّدريس، وما لبث أنِ استحال منزله مركزًا مِنْ مراكز العِلْم في حائل، ومَحَجًّا للعلماء والطُّلَّاب، يغشاه العلماء فيستزيدون عِلْمًا جديدًا، ويَخْتَلِف إليه طلبة العِلْم فيشتدّ عودهم، وتخرَّج به جماعة كبيرة مِنَ النَّاس، وقرأوا عليه جملة مِنَ الكُتُب السَّلفيَّة، قديمها وحديثها[٢].

نهضة وإصلاح

على أنَّ إمارة الجبل كان قدِ انتهى إليها شيْء مِنْ ألوان النُّهوض والتَّحديث، قبل ذلك العهد بعقود، فالإصلاحات مَسَّتْ غير ناحية مِنْ نواحي حائل، وعرفتْ تلك الإمارة طلائع النَّهضة

---

(١) البسَّام، عبد الله بن عبد الرَّحمن بن صالح. **علماء نَجْد خلال ثمانية قرون** (الرِّياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ)، ١/٢١٩-٢٢٠؛ العريفيّ، أحمد الفهد. **علماء لُبْدة**، ص ص ١٤، ١٨؛ العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ١٢٣.

(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٠؛ العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ص ١٨.

وإصلاح دواوين الإمارة، لأوَّل مرَّة في التَّاريخ، في تلك المُدَّة الَّتي وَلِيَ فيها أَمْرَ النَّاس طلال العبد الله الرَّشيد (١٢٦٣ ـ ١٢٨٣هـ). وفي عهده تَحَوَّلَتْ إمارة الجبل إلى بيئة تجنح إلى الاستقرار والتَّوطُّن، فمضى يعالج ألوانًا مِنَ الإصلاح، في التَّنمية والاقتصاد؛ أنشأ إدارات لشؤون القوافل والجمارك، وأقام الأسواق، وبَنَى المَتاجر، وشَقَّ الطُّرُق، واختطَّ خِطَطًا جديدة، وعسى أن يكون جَلْبه للحرفيِّين والتُّجَّار مِنْ جنوبيّ العراق، ومِنَ النَّجف خاصَّةً، أظهر إنجازاته، فزَيَّن لهم الاستقرار في إمارته والتَّوطُّن فيها[1].

ازدهرتْ حركة العِلْم في حائل ونَمَتْ واتَّسع مجالها، على أنَّنا لنْ نَجِدَ فيها جديدًا مِنَ الدَّرس يباين ما عليه سائر نواحي نَجْد، وبوسعنا أنْ نردَّ كلّ ألوان العلوم الَّتي يُلقيها الأشياخ، ويردِّدها مِنْ ورائهم طلبة العِلْم، إلى كُتُب الدَّعوة السَّلَفِيَّة وما يوافقها مِنْ كُتُب التُّراث، متونًا ومختصَراتٍ وحواشيَ، ومهما فتَّشْتَ في مطاوي كُتُب التَّراجم، فلنْ تظفر بما يُباين ما عليه الكُتُب الَّتي يدرسها طلبة العِلْم الشَّرعي في البلدات النَّجْديَّة، يلقانا منها **الرَّوض المُرْبِع، ودليل الطَّالِب، والمُنتهى، والإقناع، وكشْف القِناع، والتَّنقيح، والإنصاف في الفقه، وكتاب التَّوحيد**

(١) البادي، عوض. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٤ ـ ١٣٦؛ الرَّشيد، مضاوي. **السِّياسة في واحة عربيَّة، إمارة آل رشيد** (بيروت ـ لندن: دار السَّاقي، ١٩٩٨م)، ص ص ٦٩ ـ ٧٠؛ العريفيّ، أحمد الفهد. **مقامات حائليَّة**، ٢/ ٢١١؛ المفضَّليّ، مشعل. المرجع السَّابق، ص ص ٥٤ ـ ٥٥، ١٦٢ ـ ١٦٣.

لمحمَّد بن عبد الوهَّاب ورسائله، في التَّوحيد، ودواوين كتب السُّنَّة والمَسانيد، وتفسيرَيْ ابن كثير وابن جرير الطَّبريّ، والآجُرُّوميَّة وألفيَّة ابن مالك وبعض شروحها، ومُلْحة الإعراب وشرْحها لبُحْرُق، وسيرة ابن هشام، وتاريخ ابن جرير، وتاريخ ابن الأثير، والبداية والنِّهاية لابن كثير، وكُتُب ابن عبد البَرّ، وابن الجوزيّ، وابن تيمية، وابن القيِّم، وابن رجب، والشَّوكانيّ[1]، ولعلَّنا لا نغالي إذا عددْنا حائلًا مركزًا مِنْ مراكز الثَّقافة والعِلْم الشَّرعيّ في الجزيرة العربيَّة، وبخاصَّةٍ نَجْد، ويؤيِّد ذلك وفرة العلماء، بطبقاتهم المختلفة، وطلبة العِلْم، وما يكتنف أحوالهم.

شيخ يقرأ وطالب يستملي

وحيثما يَمَّمْتَ وجهك في حائل، فثمَّة حلقة عِلْميَّة، وشيخ يقرأ وطلَّاب يستملون وينسخون، وكِتَابٌ يؤلَّف، وقُرَّاء يَظْهرون على ذلك، بلْ إنَّنا واجدون، في تلك المُدَّة مِنْ تاريخ العِلْم فيها، أنَّ حائلًا أصبحتْ تنافس غيرها مِنَ الحواضر النَّجْديَّة في خزائن الكُتُب ونَسْخها، وبات مألوفًا أنْ نقرأ في كُتُب التَّراجم النَّجْديَّة الَّتي لعلماء حائل فيها ذِكْر، أوْ تلك الكُتُب الَّتي عُنِيَتْ بتقييد مآثر العلماء والأشياخ فيها، وأوَّلها وأقدمها زهر الخمائل = أنْ نظهر على مقدار عناية القوم بنسْخ

---

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ص ٢٤، ٢٥؛ الشُّغديّ، عبد الرَّزَّاق بن حمود الحسين: حديث الوثائق، سيرة مِنْ حياة الشَّيخ حمود بن حسين الشُّغديّ وعلاقته بموحِّد الجزيرة الملك عبد العزيز بن عبد الرَّحمن آل سُعُود (الرِّياض: المؤلِّف، المطابع الأهليَّة للأوفست، ١٤١٤هـ) ص ٤٠؛ الرُّديعان، حسَّان، المرجع السَّابق، ص ص ٥٣ ـ ٥٤.

الكُتُب، حتَّى باتتْ خصيصة مِنْ خصائص هذا العالِم أوْ ذاك، فسالم الشَّلَش المتوفَّى سنة ١٣١٠هـ «كان خطَّاطًا كَتَبَ بقلمه كُتُبًا كثيرة»[١]، والمقرئ الشَّيخ شكر بن حسين المتوفَّى سنة ١٣٣٧هـ «كان خطّه حسنًا جميلًا، كَتَبَ المُدْهش لابن الجوزيّ مشكَّلًا، وكَتَبَ آداب المشي إلى الصَّلاة للشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب مشكَّلًا أيضًا، وقدْ رأيتُ الآداب بخطِّه عند بعض الإخوان»[٢]، والشَّيخ ناصر السَّعد الهويِّد المتوفَّى سنة ١٣٣٩هـ «كان حسن الخطّ جدًّا، كَتَبَ بقلمه كثيرًا مِنْ رسائل الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب»[٣]، والشَّيخ عليّ بن عبد العزيز بن أحمد العبَّاس «له خطّ جميل جدًّا، ذكر لي أنَّه كَتَبَ المُدْهش لابن الجوزيّ بقلم قَصَب لا يتجاوز طوله الإصبع»[٤]، والشَّيخ عبد الله بن عمر ابن دهيش «استنسخ كُتُبًا كثيرة مِنْ كُتُب المذهب في مدينة حائل، وبَذَلَ نفيس الوقت والمال على مقابلتها وقرءاتها»[٥].

خزائن الكُتُب ووقْفها

لمْ تكنْ حائل دار عِلْم، ولمْ يَكُنْ لأهلها عناية بالكتاب، ومِمَّا قيَّده الرَّحَّالة ڤالين، حين هبطها زمن عبد الله بن رشيد، أنَّ الكُتُب فيها كانتْ قليلة، وأنَّها، على قِلَّتها، لا يملكها إلَّا القاضي، وأنَّ

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٠.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٤.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٥.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٤.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٧.

كلّ ما بيد القاضي في الفقه[1]، لكنَّنا لا نكاد نمضي في الزَّمن إلَّا قليلًا، حتَّى حَفَلَتْ تلك المدينة بخزائن الكُتُب، وحتَّى كان لأهلها عناية فائقة بها، واشترك في الولع بالكُتُب والشَّغف بها الحكَّام، والعلماء، والأعيان[2]، وطلبة العِلْم، والرِّجال والنِّساء[3]، وتُظْهِرنا التَّواريخ الحائليَّة على قدْر كبير مِنْ خزائن الكُتُب[4]، وسِجِلَّات التَّملُّك والوقفيَّات[5]، على ذلك النَّحو الَّذي يجعل مِنْ حائل، دون مماراة، عاصمة مِنْ عواصم العِلْم في الجزيرة العربيَّة كلِّها، ويكفي أنْ نشير إلى أنَّ مدينة حاتم الطَّائيّ احتفظتْ خزائن كُتُبها، حتَّى منتصف القرن الرَّابع عشر الهجريّ، بخمسة آلاف مخطوط[6].

---

(١) فالين، جورج أوغست. المرجع السَّابق، ص ١٥٠.

(٢) مِنْ أولئك عبد العزيز السُّليمان العريفيّ. كان له عناية كبيرة بالكُتُب ووقْفها على طلبة العِلْم. ولأحمد الفهد العريفيّ كلام حقيق بالمطالعة عنْ جَدِّه هذا. **مقامات حائليَّة**، ٢/ ١١٧ ـ ١٢١.

(٣) الحربيّ، دلال بنت مخلد. **إسهام المرأة في وقْف الكُتُب في منطقة نجْد في القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر الهجريّين** (الرِّياض: مكتبة الملك فهد الوطنيَّة، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م)، ص ص ٣٣ ـ ٤٠.

(٤) لتفاصيل أوفى عن المكتبات الخاصَّة في حائل، يُنْظَر: العريفيّ، أحمد الفهد. **قضاة حائل ١٢٠٠ ـ ١٣٤٠هـ** (الرِّياض: د.ن، مطابع دار الجسر، ١٤١٥هـ)، ص ص ٢١ ـ ٢٦، **مقامات حائليَّة**، ٢/ ١٨٩ ـ ١٩٨، **علماء نُبْدة**، ص ص ١٩ ـ ٢٠؛ السُّويداء، عبد الرَّحمن بن زيد. **الثَّقافة والتَّعليم في منطقة حائل قبل المدارس النِّظاميَّة** (الرِّياض: دار السُّويداء للنَّشر والتَّوزيع، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م)، ص ص ٦٠ ـ ٦٣؛ الرُّديعان، حسَّان. **منبع الكرم والشَّمائل**، ص ص ١٠١ ـ ١٠٦، **فهارس المخطوطات الأصليَّة في مدينة حائل** (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣١هـ)؛ العنقريّ، حمد. **حُكْم محمَّد العبد الله بن رشيد**، ص ص ١٢٦ ـ ١٢٩.

(٥) السُّويداء، عبد الرَّحمن بن زيد. المرجع السَّابق، ص ص ٦٨ ـ ١٥٩.

(٦) الرُّديعان، حسَّان. **منبع الكرم والشَّمائل**، ص ص ٣٨ ـ ٣٩.

أتاحتْ لنا قوائم تلك الخزائن معرفة وثيقة بالمخطوطات الَّتي انطوتْ عليها، ومِنْها نَعْرِف الكُتُب الَّتي اهتمَّ بها العلماء وطلبة العِلْم وأفراد مِنَ رجال الأسرة الحاكمة ونسائها[1]، آنئذٍ، على أنَّ تلك المخطوطات لمْ تباينْ ما عليه خزائن الكُتُب في غير بلدة مِنَ البلدات النَّجْديَّة، فللدَّعوة السَّلفيَّة وكُتُب شيخها وتلاميذه المقام الأسنَى، ولهم عناية بكُتُب السَّلَف، وبالأخصّ ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم، ومَنِ اقتفَى أثره كابن كثير القرشيّ ومَنْ إليه، ومع أنَّ الغلبة لكُتُب الدِّين وعلومه، فلمْ تَخْلُ تلك المكتبات مِنْ مصنَّفات في الأدب والتَّاريخ والسِّيَر والتَّراجم، وأصبحتْ حائل الَّتي لمْ يشاهدِ الرَّحَّالة ڤالين أيَّ كتاب في التَّاريخ، بين الكُتُب الَّتي يمتلكها قاضيها[2]، ولمْ يُصِبْ عند إمام مسجدها معرفةً بالأدب العربيّ والصَّرف والنَّحو[3] = أصبحتْ ولأهلها عناية بالتَّاريخ واللُّغة والنَّحو والصَّرف والأدب، وإذا مَجالسهم يُقْرَأ فيها غير كتب الفقه والتَّوحيد والدِّين.

ونحن لا نعْرِف عنِ المَجالس العِلْميَّة شيئًا يُباين مَجالِس العلماء وطلبة العِلْم الَّتي تُعْقَد في المساجد وبيوت الأشياخ. لا نَعْرِف مَجالسَ أُفْرِدَتْ للأدب، ولمْ نَظْفَرْ باسْم قهوةٍ يرتادها الأدباء أوِ المشتغلون بالكتابة، ومعظم ما يَدُور في مجالس العِلْم مجالُه الفقه والتَّوحيد والتَّفسير والوعْظ، ونَستبين مِنْ ترجمة جماعة مِنَ

(١) عنْ الكُتُب الَّتي وقفتْها نساء آل رشيد، يُنْظَر: الحربيّ، دلال بنت مخلد. المرجع السَّابق، ص ص ٣٣ ـ ٣٦.
(٢) ڤالين، جورج أوغست. المرجع السَّابق، ص ١٥٠.
(٣) ڤالين، جورج أوغست. المرجع السَّابق، ص ١٤٨.

العلماء، ما يفيد أنَّ بعضهم قرأ على شيخه كتابًا في التَّاريخ، وأنَّه قرأ كُتُبًا في الأدب، واستظهر قَدْرًا صالحًا مِنَ الشِّعْر.

فالشَّيخ عبد الله بن عيسى الدَّقليّ قرأ على الشَّيخ عبد الله بن بليهد **تاريخ ابن جرير الطَّبري**[1]، وقرأ الشَّيخ عليّ بن صالح بن سالم البنيَّان **تاريخ ابن كثير**[2]، وتُوفِّيَ الشَّيخ جار الله الحمَّاد فجأةً، وهو يقرأ على الأمير حمود بن عبيد الرَّشيد **معجم البلدان** لياقوت الحمويّ[3]، وتُظْهرنا أخبار هذا الأمير على مقدار عنايته بكُتُب التَّاريخ والأنساب والتَّراجم والسِّيَر[4]، بلْ إنَّ مِنْ محتويات مكتبات علمائها كُتُبًا في المنطق والتَّصوُّف، وأخرى باللِّسان الفارسيّ[5].

ويلوح مِنْ تنوُّع الكُتُب وتعدُّدها احتفال الحائليِّين بالكتاب والمكتبة، يدلّ على ذلك أنَّ نفرًا مِنْ أمراء البيت الحاكم، رجاله ونسائه، وجمهرةً مِنْ رجال حائل ونسائها حَبَسوا الكُتُب ووَقَفوها على طلبة العِلْم[6]، وأنَّ بعض أعيانهم كان قدْ أوصَى بشيْء مِنْ

---

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٤.

(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٥.

(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١١.

(٤) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ١٧؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ١٨٥.

(٥) عفنان، سعد بن خلف. «المكتبات في حائل»، مجلَّة **تجارة حائل**، رمضان ١٤١٤هـ، ص ص ٤٩ ـ ٥٤، تجدها في كتاب **قضاة حائل**، لأحمد الفهد العريفيّ، ص ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٦) الحربيّ، دلال بنت مخلد. المرجع السَّابق، ص ص ٣٣ ـ ٤٠؛ العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ص ٢٥؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٩؛ العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ص ١٢٩ ـ ١٣١.

ميراثه لطلبة العِلْم[1]، بلْ إنَّ أمراء البيت الحاكم شُغِفُوا بالكتاب وبالثَّقافة وبالمعرفة، وربَّما أظهرتْ عناية أفراد ممتازين مِنْهم صورة «الأمير المثقَّف» في تراثنا، وعسى أن يكون عبيد بن عليّ الرَّشيد مثال ذلك الأمير[2]، ونَعْرف ممَّا تَحَدَّرَ إلينا مِنْ أخباره أنَّه كان سَلَفِيًّا متحمِّسًا لدعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب[3]، وكان، إلى عنايته بكُتُب الدَّعوة السَّلَفِيَّة وكُتُب السَّلَف، مشغوفًا بقراءة كُتُبٍ في التَّاريخ والسِّياسة والأدب، وإنَّنا واجدون في خزانة كُتُب آل عبيد الرَّشيد كتاب **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، **وشرح المعلَّقات السَّبْع**، **وأساس البلاغة**، **ومعجم البلدان**، **وسيرة ابن هشام**، **وتاريخ الرُّومانيِّين**، **وتاريخ القسطنطينيَّة**، **وأصل الأتراك**، **وحُقوق الدُّول في أوربَّا**، **والسِّياسة الشَّرعيَّة**، **والمستطرَف**، **ولُزُوم ما لا يلزم**[4]. وامتدَّ أثر هذا الأمير المثقَّف إلى ابنه حمود، فمجلسه لمْ يَكُنْ مجلس حُكْم وسياسة، فحسْبُ، ولكنَّه مجلس عِلْم وأدب، يختلف إليه العلماء وطلبة

---

(١) العريفيّ، أحمد الفهد. **مقامات حائليَّة**، ٢/ ١٩٧. وفيه نقرأ وصيَّة لعبد الله المحمَّد لعريفي، مؤرَّخة في الثَّامن عشر مِنْ شهْر ذي الحِجَّة مِنْ سنة اثنتين وثلاثمئة وألف للهجرة.

(٢) عنْ عناية عبيد بن عليّ الرَّشيد بالثَّقافة والكتاب، يُنْظَر: العثيمين، عبد الله الصَّالح. **نشأة إمارة آل رشيد**، ص ٨٣؛ العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ١/ ٦٦ ـ ٦٨.

(٣) العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ١/ ٦٦.

(٤) العفنان، سعد بن خلف. «المكتبات في حائل»، **مجلَّة تجارة حائل**، رمضان ١٤١٤هـ، ص ص ٤٩ ـ ٥٤، تجدها في: العريفيّ، أحمد الفهد. **قضاة حائل**، ص ٧٩.

العِلْم، ويَقْطعون طَرَفًا مِنَ النَّهار في قراءة جمهرة مِنْ كُتُب العلوم الشَّرعيَّة والتَّاريخ والأنساب والسِّيَر والتَّراجم وسواها[1]. ومِنْ قبْلُ كانتِ الرَّحَّالة اللِّيدي آن بلنتْ قدْ كتبتْ عنْ أمير مثقَّف مِنْ أبناء هذه الأسرة، هو سليمان عمّ الأمير حمود الرَّشيد

> وزرتُ عائلة سليمان عمّ حمود. وسليمان عرفتُه في البلاط، وهو يصبغ لحيته بالحنَّاء، ويحبّ الكُتُب، ووجدتُه غارقًا بينها في غرفة الاستقبال، عندما ذهبتُ لزيارة زوجاته. وكنتُ آمل أنَّ محادثته ستكون مفيدة لولا أنَّه بمجرَّد ما بدأ مِنَ الحديث، دخلتْ زوجته مندفعةً يتبعها جمهور مِنَ النِّساء، فجمع كُتُبه ومخطوطاته وخرج مسرعًا[2]

وعلى ذلك كان حاكم إمارة الجبل، بلْ وعامَّة نَجْد، محمَّد بن عبد الله ابن رشيد. قال عنه الرَّحَّالة أويتنغ: إنَّه كان عالمًا بالشُّعراء العرب القدامَى، يحفظ قدرًا صالحًا مِنْ أشعارهم[3]، وحمله شغفه بالشِّعْر القديم على اقتناء جملة صالحة مِنْ دواوين الشِّعْر والأدب، أهمُّها طبعة هنديَّة مِنْ **ديوان المتنبِّي**، **وشَرْح ديوان المتنبِّي لأبي البقاء**، **وديوان ابن المقرّب**، **وكَلِيلة ودِمنة**، وكتاب **سِرَاج الملوك**[4]، ونَعْرف، كذلك، أنَّ هذا الأمير

---

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ١٨٥.

(٢) بلنتْ، اللِّيدي آن. **رحلة إلى بلاد نَجْد**، ترجمة محمَّد أنعم غالب (الرِّياض: دار اليمامة للبحث والتَّرجمة والنَّشر، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م)، ص ١٩٨.

(٣) البادي، عوض. المرجع السَّابق، ٢/٦١٨.

(٤) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ص ٥١ ـ ٥٢.

النَّجْديّ المثقَّف كان يتقن اللُّغتين الفارسيَّة والتُّركيَّة إتقانه للعربيَّة[1]، يطالع الصُّحُف العربيَّة والتُّركيَّة الَّتي تصْدر في مصر وسوريَّة والقسطنطينيَّة[2].

شخصيَّة المكان

ولا ريب في أنَّ موقع حائل في الطَّرَف الشَّماليّ مِنْ نجْد صَنَعَ لها «شخصيَّة» متميِّزةً مِنْ غيرها مِنَ البلدات النَّجْديَّة، فهي وإنْ رَنَتْ ببصرها نحو الدِّرعيَّة، أوَّلًا، والرِّياض، آخِرًا، عاصمتَي الدَّعوة السَّلَفِيَّة، فإنَّها لمْ تَخْلُصْ بكلِّيَّتها لذلك الرَّافد. نعمْ، لمْ يتنكَّرْ أمراؤها ولا حكَّامها ولا طلبة العِلْم فيها لميراث الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب، ولكنَّ موقعها المُصَاقِب للمدينة المنوَّرة، جنوبًا، والعراق، شمالًا، ومرور قافلة الحجّ العراقيّ والعجميّ بها، كلّ ذلك أتاح لها قدرًا، يتَّسع أوْ يضيق، لألوان مِنَ المؤثِّرات في الاقتصاد والتِّجارة والاجتماع والثَّقافة، نكاد نستبينها مهما تَغَشَّتْ بأسمال الدَّعوة السَّلفيَّة القادمة إليها مِنْ وسط نجْد، فحماسة أمرائها وعلمائها للدَّعوة النَّجْديَّة كانتْ تستقيد

---

(١) البادي، عوض. المرجع السَّابق، ٢/٦١٨؛ العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ٥٢.

(٢) نولده، البارون إدوارد. **رحلة إلى وسط الجزيرة العربيَّة ١٨٩٢م ـ ١٣٠٩هـ**، ترجمة عماد الدِّين غانم، مراجعة محمود كبيبو (لندن ـ بيروت: دار الورَّاق، ٢٠١٥م)، ص ١٠٥؛ البادي، عوض. **الأوضاع السِّياسيَّة في وسط الجزيرة العربيَّة عند نهاية القرن التَّاسع عشر (حائل ـ القصيم ـ الرِّياض)، نصّ رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نَجْد عام ١٨٩٣م=١٣١٠هـ** (الرِّياض: دار بلاد العرب، واشنطن: المعهد العربيّ للدِّراسات الدَّوليَّة، ١٩٩٧م)، ص ٩٣.

لأصول الدِّين وما هو معلوم مِنَ الدِّين بالضَّرورة، أمَّا ما دون ذلك، فقدْ أسمحتْ حائل وأَسْمَحَ أهلها، ولانتْ طباعهم[١]، ولولا هذه الأخلاق الَّتي جُبِلُوا عليها ما استطاعتْ جمهرة مِنَ الأُسَر الشِّيعيَّة النَّجفيَّة أنْ تتخذ مِنْها دارًا، ومِنْ أهلها جيرانًا، ومِنْ سوقها مَتْجرًا[٢]، ولا جَرَمَ أنَّ دواعي التِّجارة الَّتي أقدمتِ التُّجَّار المَشَاهِدة مِنَ قلب النَّجَف ذلَّلَتْ أسباب ذلك الاجتماع والتَّوطُّن[٣]، ومع ذلك فقدْ أُتيحَ للحائليِّين اعتياد المباينين لهم في العِرْق والجنسيَّة والمذهب، منذ عهد بعيد، نستطيع أنْ نرقَى به إلى ذلك العهد الَّذي أصبحتْ فيه طريقًا للحجّ والتِّجارة[٤]، وأصبح نفر مِنْ أبناء الأسرة الحاكمة أمراء للحجّ[٥]، وشاءتِ

---

(١) ڤالين، جورج أوغست. المرجع السَّابق، ص ص ١٤٦ ـ ١٤٧؛ البادي، عوض. **الرَّحَّالة الأوربِّيُّون في شمال وسط الجزيرة العربيَّة، منطقة حائل ١٨٤٥ ـ ١٩٢١م**، ١/ ٦٠، ٢/ ٦١٨، وفيه يَصِف الرَّحَّالة يوليوس أويتنغ الأميرَ محمَّد بن عبد الله بن رشيد بأنَّه، على التزامه بالدِّين، لمْ يكنْ متزمِّتًا تجاه مَن يُخالفونه في عقيدته. ويُنْظَر فيه، كذلك، كلام للضَّابط جيرالد ليتشمان ٢/ ٨١٢؛ العثيمين، عبد الله الصَّالح. **نشأة إمارة آل رشيد**، ص ص ٨١ ـ ٨٢.

(٢) المفضَّليّ، مشعل. المرجع السَّابق، ص ص ١٧٠ ـ ١٧٣.

(٣) المَشَاهِدة أُسَر شيعيَّة استقدمها الأمير طلال الرَّشيد، واستقرُّوا في إمارة الجبل، وأنشأوا فيها سوقًا عُرِفَ باسم «سوق المَشَاهِدة». موزيل، ألويس. المرجع السَّابق، ص ٤٨؛ العريفيّ، فهد العليّ. المرجع السَّابق، ص ١١٥؛ العريفيّ، أحمد الفهد. **مقامات حائليَّة**، ١/ ٢٧ ـ ٢٨، ٧٩ ـ ٨٠، ٢/ ٢١١؛ المفضَّليّ، مشعل. المرجع السَّابق، ص ص ١٧٠ ـ ١٧٣.

(٤) موزيل، ألويس. المرجع السَّابق، ص ١٢. وللتَّوسُّع يُنْظَر: الرَّشيد، مضاوي. المرجع السَّابق، ص ص ص ١٠٧ ـ ١٢٥.

(٥) المفضَّليّ، مشعل. المرجع السَّابق، ص ٥٦.

الشَّعيرة وشاء الاقتصاد أنْ تكون بلدتهم مجتمعًا للتَّبادُل الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثَّقافيّ مع تجَّار العراق[١]، والحجيج القادمين مِنَ العراق وبلاد ما وراء النهرين وفارس، في طريقهم إلى الدِّيار المقدَّسة في الحجاز[٢]، وفيهم التَّاجر والعالِم والأديب والورَّاق والكُتبيّ[٣].

ولا نحتاج إلى الحدْس ولا التَّخمين، فما بين أيدينا مِنْ كُتُب التَّراجم يُظْهرنا على ألوان مِنْ تلك الصِّلات العِلْميَّة والثَّقافيَّة؛ مع البلدات النَّجْديَّة، وخاصَّةً الرِّياض، عاصمة الدَّعوة السَّلَفِيَّة، الَّتي أصبحتْ مقصد علماء حائل وطلبة العِلْم فيها، فالشَّيخ صالح السَّالم البنيَّان قرأ على علماء الرِّياض[٤]، ورحل الشَّيخ حسين بن حمود الشَّغدليّ إليها سنة ١٣٢٦هـ، وأخذ النَّحو عنِ الشَّيخ حمد بن فارس، والتَّوحيد والعقائد والفقه عنِ الشَّيخ عبد الله بن عبد اللَّطيف[٥]، ورحل الشَّيخ عيسى بن محمَّد المَلَاحِيّ إلى بريدة فعنيزة طلبًا للعِلْم[٦]. أمَّا الحجاز، فقدِ اختلف غير عالم مِنْ علماء إمارة الجبل إلى أروقة الحرمين الشَّريفين، بمكَّة المكرَّمة

---

(١) العثيمين، عبد الله الصَّالح. المرجع السَّابق، ص ٨٩؛ الرَّشيد، مضاوي. المرجع السَّابق، ص ٢٣.

(٢) العثيمين، عبد الله الصَّالح. المرجع السَّابق، ص ٩٠.

(٣) المفضَّليّ، مشعل. المرجع السَّابق، ص ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨، ويذكر الرَّحَّالة جورج أوغست ڤالين أنَّ الكُتُب الَّتي تُجْلَب إلى حائل، على قِلَّتها، مصدرها مَشْهَد عليّ، في العراق. المرجع السَّابق، ١٥٠.

(٤) القاضي، محمَّد بن عثمان. **روضة النَّاظرين عنْ مآثر علماء نجْد وحوادث السِّنين** (القاهرة: مطبعة الحلبيّ، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م)، ١/ ١٧١.

(٥) البسَّام، عبد الله. **علماء نجْد في ثمانية قرون**، ٢/ ١٣٦.

(٦) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/ ٣٤٩.

والمدينة المنوَّرة، وتلمذوا للجِلَّة مِنْ أشياخهما. جاء في ترجمة الشَّيخ عثمان بن منصور المتوفَّى سنة ١٢٨٢هـ، أنَّه سافر إلى المدينة المنوَّرة ولازم علماءها والوافدين عليها[١]، ونقرأ في ترجمة الشَّيخ عبد الله بن سليمان بن عبيد المتوفَّى سنة ١٢٤١هـ، أنَّه جَاوَرَ بمكَّة المكرَّمة زمنًا، ولازم علماء المسجد الحرام[٢]، وكذلك الشَّيخ عبد العزيز بن صالح المرشديّ المتوفَّى سنة ١٣٢٤هـ «رحل إلى الحجاز وأخذ عن علمائها [و] تَصَدَّرَ للتَّدريس بالمسجد الحرام»[٣]، والشَّيخ عبد الله بن مسلم التَّميميّ المتوفَّى سنة ١٣٤١هـ «حَجَّ وأقام مجاورًا في مكَّة، ولازَمَ علماء المسجد الحرام»[٤]، وسافر الشَّيخ عبد الله بن خلف الرَّاشد المتوفَّى سنة ١٣٤٤هـ إلى المدينة المنوَّرة، وجاور فيها، وله فيها تلامذة[٥]، أمَّا صاحب **زهر الخمائل في تراجم علماء حائل** = الشَّيخ عليّ بن محمَّد الهنديّ، المتوفَّى سنة ١٤١٩هـ، فدَرَسَ على علماء البلد الحرام، وطاب له المقام في مكَّة المكرَّمة، حتَّى عُدَّ مِنْ علماء المسجد الحرام[٦]، وقَصَدَ الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم بن سيف المتوفَّى سنة ١٢٦٥هـ مصر، في حدود سنة ١٢٥٤هـ، وقرأ على مشايخها جملة مِنَ الفنون[٧]، وكذلك

---

(١) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٧٧.
(٢) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٣٢١.
(٣) النَّقيب، منصور بن محمَّد بن عبد الله. **المدرِّسون في المسجد الحرام مِنَ القرن الأوَّل حتَّى العصر الحاضر** (مكَّة المكرَّمة: المؤلِّف، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م)، ٢/ ٢٦٥.
(٤) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٣٧٢.
(٥) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٣٧٦.
(٦) النَّقيب، منصور بن محمَّد بن عبد الله. المرجع السَّابق، ٣/ ٧١ ـ ٧٣.
(٧) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٨.

الشَّيخ محمَّد بن سعد بن مبارك المتوفَّى بعد سنة ١٢٨٤هـ، رحل إلى القاهرة، وتعلَّم فيها[١]، ولا يبعد الأمر، كذلك، بالقياس إلى الشَّام. قرأ فيها الشَّيخ عبد الله آل خلف المتوفَّى سنة ١٣٤٤هـ النَّحْو والصَّرف على الشَّيخ عبد القادر الإسكندرانيّ[٢]، أمَّا العراق، وبخاصَّةٍ جنوبه المُشارف لحائل، فقدْ كان مهجرًا قديمًا للحائليِّين، ولا نحتاج في إثبات ما بينهما مِنَ الصِّلات العِلْميَّة والثَّقافيَّة إلى فضل بيان[٣]، وأثره في بعض علماء الجبل بيِّن قويّ[٤].

الثَّقافة العصريَّة

مَرَّ بنا أنَّ حائلًا ما لبثتْ أنْ أصبحتْ أهمّ ناحية في نجْد، ومَرَّ بنا أنَّ محمَّد بن عبد الله بن رشيد لَمَّا قَوِيَ سُلْطانه، استولَى على نَجْد، وقَضَى على الدَّولة السُّعُوديَّة الثَّانيَّة، وصار إليه الحَوْل والطَّوْل في تلك الهضبة العَصِيَّة، وحين أقرَّ ابن رشيد بتبعيَّته لسلطان الدَّولة العثمانيَّة، وهو ما لَمْ يكنْ معهودًا في قلب نَجْد، وبخاصَّةٍ ناحية العارض وما حولها = عندئذٍ أَلِفَ نفر مِنْ أبناء حائل الاختلاف إلى الآستانة، حيث البلاط العثمانيّ[٥]، ولن

---

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ١٦٢.

(٢) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٢٦٩.

(٣) خير ما صُنِّفَ في هذا الباب كتاب **الصِّلات الحضاريَّة بين جبل شمَّر وجنوبي العراق** للباحث مشعل المفضَّليّ.

(٤) وأخصّ بالذِّكْر الشَّيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور، فلقدْ كان للعالم العراقيّ داود بن جرجيس أثر كبير في تفكيره، يباين ما عليه علماء الدَّعوة السَّلَفيَّة. البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/٩٧.

(٥) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

يخفَى علينا ما اجتناه أبناؤها مِنْ ذلك الاتِّصال، إنَّهم أضحَوْا أشدَّ التصاقًا بالثَّقافة العصريَّة المباينة لِمَا اعتادتْه نَجْد قلعة الدَّعوة السَّلَفِيَّة، ويغلب على الظَّنّ أنَّ الثَّقافة «العصريَّة» أثرها كان عميقًا وكبيرًا في الجبل، يصوِّره لنا أبلغ تصوير سليمان الدَّخيل، ذلك الصَّحفيّ النَّجديّ الَّذي اتَّخذ العراق مهجرًا له ومقامًا

> ولَمَّا دالتْ إمارة آل سعود وافق آخرها نموّ إمارة محمَّد الرَّشيد، فانتقلتْ أكثر الكُتُب إلى حائل. وأنت تعلم أنْ لا صناعة ولا تجارة لأهل حائل إلَّا الغزو لا غير. ومع ذلك فتراهم قدْ سبقوا غيرهم في العلوم العصريَّة، وذلك لاختلاف كبرائهم إلى الأستانة ومصر والحجاز، أيَّام السُّلطان عبد الحميد المخلوع، فأصبح البعض منهم يعرف اللِّسان التُّركيّ والفارسيّ
>
> وترى في بلادهم اليوم الكُتُب العربيَّة القديمة النَّادرة الثَّمينة الَّتي لا ترى لها وجودًا في سائر البلاد العربيَّة، وأغلبها غير مطبوع. وتؤانس جماعةً منهم تطالع الصُّحُف السَّيَّارة والمجلَّات الموقوتة. وأهل هذه الدِّيار أنور مِنْ غيرهم مِنْ تلك الأقطار في العلوم العصريَّة، وأوسع اطِّلاعًا في الأمور السِّياسيَّة. ولهم ميل شديد إلى الحكومة العثمانيَّة، وهذا الميل أظهر فيهم مِمَّنْ سواهم[1]

(١) الدَّخيل، سليمان. «نجْد»، مجلَّة لغة العرب، تمُّوز ١٩١١م، ص ص ١٦ ـ ٢٥، نقلًا عنْ: عجيل، محسن غيَّاض. المرجع السَّابق، ص ٤٩.

وكلام سليمان الدَّخيل، على اقتضابه، مفيد، وربما جاز لنا أنْ نفهم مِنْ روح العصر ما يكمل ما لمْ يقلْه، وأغلب الظَّنّ أنَّ أهل السِّياسة في حائل، وربما نخبها العالمة، قدْ أصابهم شيْء مِمَّا لَهِجَ به العثمانيُّون مِنْ نبأ الإصلاح العثمانيّ، وبخاصَّةٍ إعلان الدُّستور، وما اضطرب فيه العلماء والسَّاسة والمفكِّرون، وعسَى أن يكون دخول حائل في قبضة السُّلطان العثمانيّ مطيَّة لانشغال أهلها، الكبراء والعلماء، بتلك الأحداث الجِسَام الَّتي تقلَّبتْ فيها الدَّولة العَلِيَّة، قُبَيْلَ سقوطها، ولا سبيل لهم لاستجلاء ما يدور، إلَّا الإلمام بالصُّحُف والمجلَّات الَّتي تصل إلى ديارهم مِنْ عاصمة الخلافة وغيرها مِنَ العواصم العربيَّة، وتجلو لنا حياة رُشَيد اللَّيلا (١٢٩٤ ـ ١٣٦٢هـ) سِيرة وجيه حائليّ اتَّصل بالسِّياسة، وتَقَلَّب في أحوالها، حتَّى غدا مرجعًا فيها، وكان كلّ ما في حياته ينبئ عنْ تقلُّده وظيفةً دينيَّةً في القضاء أوِ الإمامة أوِ التَّدريس، فالرَّجُل الَّذي انْكَبَّ في مفتتح حياته على العِلْم الدِّينيّ، لمْ يلبثْ أنِ اتَّصَلَ بأهل الحُكْم والسِّياسة في إمارة جبل شمَّر، ولَمَّا رأى فيه عبد العزيز بن متعب بن رشيد مخايل السِّياسيّ الماهر، جعله وكيلًا له في تركيا، فأظهر كفاية نادرة، وأنعم عليه السُّلطان عبد الحميد بالباشويَّة[1].

لكنَّنا لا نظفر بأثر للعلوم العصريَّة الَّتي ألمحَ إليها سليمان الدَّخيل، فيما بين أيدينا مِنْ تراجم العلماء، وما ظهرْنا عليه مِنْ

(١) العريفيّ، أحمد الفهد. علماء لُبْدة، ص ٣٦. وتُطالَع ترجمة واسعة له في: القشعميّ، محمَّد بن عبد الرَّزَّاق. **معتمَدو الملك عبد العزيز ووكلاؤه في الخارج** (بيروت: مؤسَّسة الانتشار العربيّ، ١٤٣٦هـ=٢٠١٥م)، ص ص ٢٧ ـ ٤٢.

آثارهم العِلْميَّة لا يعدو أن يكون استمرارًا لتقاليد الكتابة العربيَّة في علوم الشَّريعة. ومَنْ تَصَدَّرَ في المجتمع هم المنتسبون إلى الدِّين والمشتغلون بعلومه، كالفقهاء، والقضاة، والمفتين، وقرَّاء القرآن الكريم وحُفَّاظه، والمدرِّسين في المساجد والكتاتيب، أمَّا ما سوى أولئك فلا نعثر على أثر لهم، فهم إمَّا أن يَدْرسوا ما تَحَدَّر إليهم مِنْ كُتُبٍ، كثيرها في الدِّين، وقليلها في العربيَّة، وإنْ سَمَتْ هِممهم وتَصَدَّوْا للتَّأليف فلا تخرج مؤلَّفاتهم عنْ رُسُوم الشَّرح والاختصار والتَّحشية والمجادلة والمناظرة، ويَجْلُو لنا كتاب **زهر الخمائل** والكُتُب الَّتي اقتفتْ أثره، ما وضعه علماء حائل مِنْ آثار، وتلقانا منها منظومة **الرَّدّ الدَّامغ على مَنِ اعتقد أنَّ شيخ الإسلام زائغ**[1]، **وفتح الحميد شرْح كتاب التَّوحيد**[2]، **وكشف الغُمَّة في الرَّدّ على مَنْ كَفَّرَ الأمَّة**[3]، **ومنهج المعارج لأخبار الخوارج بالإشراف على الإسراف مِنْ دينهم الخارج**[4]، كلُّها للشَّيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور المتوفَّى سنة **١٢٨٢هـ**، **والصَّواعق في الرَّدّ على أُنموذج الحقائق**، للشَّيخ عوض بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى سنة **١٣٠٤هـ**[5]، وللشَّيخ محمَّد بن إبراهيم بن سيف المتوفَّى سنة **١٢٦٥هـ**، **رسالة في الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المنكر**[6]، وللشَّيخ عيسى المَلَاحِيّ **شرْح**

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/ ٩١.
(٣) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/ ٩٦.
(٤) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/ ٩٧.
(٥) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٧. وهو في الرَّدّ على داود بن جرجيس.
(٦) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٧.

لكتاب التَّوحيد[1]، ولبعض العلماء اشتغال يسير بالعلوم العربيَّة، فللشَّيخ عيسى المَلَاحيّ **رسالة في عِلْم العَروض**، لمْ تصلنا[2]، وله، كذلك، **مختصر في علوم النَّحْو**[3]، كما أنَّ للشَّيخ سليمان بن عطيَّة المزينيّ الَّذي أُولِع بالمنظومات الفقهيَّة[4]، منظومةً في البروج والنُّجوم[5].

العالِم والسُّلطان

ألمحْنا، فيما سبق، بطائفة مِنْ مؤلَّفات علماء حائل، وعرفْنا أنَّها لا تُباين نهْج أئمَّة الدَّعوة الإصلاحيَّة وعلمائها في نَجْد، وظهر لنا أنَّ أصحاب تلك الآثار إنَّما هم مِنَ المشتغلين بعلوم الدِّين، كالقضاة، والمفتين، والقُرَّاء، والمدرِّسين، بلْ إنَّنا واجدون في سِيَر أولئك الأشياخ أنَّ ما نِيطَ بهم مِنْ أعمال لمْ يَصُدَّهم عنْ تعليم النَّاس شؤون دينهم، ولا حال بينهم وبين طلب العِلْم والاشتغال بالتَّأليف، وتُظْهِرنا تراجم أولئك الأشياخ على شيء مِنْ أحوالهم، وألوان معيشتهم، ونستطيع أنْ نُحْصِيَ الوظائف الَّتي وَلِيَهَا أولئك العلماء، وإنْ كانتْ كُتُب التَّراجم لا تتيح لنا معرفة واسعة بموارد أولئك العلماء، ولكنَّنا نستشفُّها مِنْ أشباهها في البلدات النَّجْديَّة.

---

(١) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٣٨.

(٢) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٢٩٤.

(٣) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٣٩.

(٤) سنتحدَّث عنها فيما بعد.

(٥) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٤١.

ويقف القضاء على رأس تلك الوظائف الدِّينيَّة[١]. ويغلب أنْ نرى القاضي في غير مكان؛ نراه في ساحة القضاء، يفصل بين المتخاصمين؛ ونراه في حِلَق العِلْم يقرأ ويشْرح؛ ونراه مفتيًا، وإمامًا، ومعلِّمًا، ومستشارًا، فالشَّيخ محمَّد بن راشد الغنيميّ، كان قاضيًا لإمارة الجبل، وكان إمام الصَّلاة، وخطيب الجمعة، ومعلِّمًا للقرآن الكريم وتفسيره[٢]، وعلى ذلك جمهرة مِمَّنْ ترجم لهم عليّ بن محمَّد الهنديّ في **زهر الخمائل**، بلْ على ذلك جمهرة واسعة مِنَ القضاة في تاريخ الإسلام

> توضح تراجم القضاة بأنَّه لمْ يكنْ هناك فاصلٌ قاطع بين القضاء والتَّدريس والفتيا؛ فقدْ عمل كثير مِنَ القضاة ونُوَّابهم في التَّدريس وفي القضاء، مثلما جَمَعَ قضاة بين القضاء والإفتاء، ومفتون بين الإفتاء والتَّدريس[٣]

ومع أنَّنا نعرف جمهرة مِنَ العلماء الَّذين باشَروا هذه الوظيفة الرَّفيعة، فإنَّنا نقف على أسماء جمهرة مِنَ العلماء، أُرِيدوا على القضاء فامتنعوا، تورُّعًا، يَلقانا منهم يعقوب بن محمَّد بن سعد[٤]، وابنه يوسف[٥]،

---

(١) يتبوَّأ القاضي مكانة رفيعة في المجتمع، بعد أمير البلدة رأسًا، وهو مسموع الكلمة عند الأمراء والحُكَّام. البسَّام. أحمد عبد العزيز. المرجع السَّابق، ص ١٢٨.

(٢) البادي، عوض. المرجع السَّابق، ٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠، (يوميَّات الرَّحَّالة هوبر).

(٣) الصَّبَّاغ، ليلى. **مِنْ أعلام الفكر العربيّ في العصر العثمانيّ الأوَّل: محمَّد الأمين المُحِبّي المؤرِّخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** (دمشق: الشَّركة المتَّحدة للتَّوزيع، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)، ص ٢٤١.

(٤) القاضي. محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٥٣.

(٥) القاضي. محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٥٧.

وحمود الشَّغدليّ[١]، وعيسى المهوِّس[٢]، وسليمان بن عطيَّة المزينيّ[٣]، وعبد الرَّحمن بن سليمان المَلَق[٤]. على أنَّنا نقف، كذلك، على أسماء جمهرة مِنَ القضاة، سواء منهم مَنْ أُوْفِدُوا عليها، أوْ كانوا مِنْ أبنائها، ونظهر على شيء مِنَ التَّورُّع في غير وظائف القضاء، فيعقوب بن محمَّد بن سعد، المارّ ذِكْره، عمل إمامًا وخطيبًا ومرشدًا وواعظًا ومدرِّسًا بجامع برزان تطوُّعًا دون أجْر[٥]، ولمْ يَلِ عملًا في دواوين الحكومة[٦]، وله في ذلك سَنَدٌ وسَلَفٌ مِنَ الفقهاء المتورِّعين[٧]، لكنَّنا، مع ذلك، نظهر على أسماء طائفة مِمَّنْ غَشَوْا بلاط الحكَّام واتَّصلوا بهم ووُلُّوا شأنًا مِنْ شؤونهم، ويذكر الرَّحَّالة ثالين أنَّ إمام الجامع الكبير في حائل كان يتقاضى راتبًا مِنَ الحاكم[٨]، وأطنب

---

(١) القاضي. محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٩٨، وفيه أنَّه «رُشِّح للقضاء مرارًا ثمَّ أُلْزِمَ به».

(٢) القاضي. محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٣٦.

(٣) القاضي. محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٣.

(٤) القاضي. محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٢٣٢.

(٥) القاضي. محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٥٣؛ البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٦/ ٤٩٦.

(٦) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٦/ ٤٩٦.

(٧) عن العلماء الَّذين امتنعوا عنْ وظيفة القضاء في التَّاريخ الإسلاميّ، يُنْظَر: متز، آدم. **الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرَّابع الهجريّ**، ترجمة محمَّد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: مكتبة الخانجيّ، بيروت: دار الكتاب العربيّ، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م)، ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٤؛ هورويتز، نيمرود. **أحمد بن حنبل وتشكُّل المذهب الحنبليّ، الورَع في موقع السُّلطة**، ترجمة غسَّان عَلَم الدِّين، راجع النَّصّ على المصادر الأصليَّة وقدَّمَ له رضوان السَّيِّد (بيروت: الشَّبكة العربيَّة للأبحاث والنَّشر، ٢٠١١م)، ص ص ١٥٥ ـ ١٦٠.

(٨) ثالين. المرجع السَّابق، ص ١٤٨؛ البادي، عوض. المرجع السَّابق، ١/ ٦١.

الرَّحَّالة هوبر في يوميَّاته، وأورد تفاصيل مهمَّة عن رِزْق القاضي محمَّد بن راشد الغنيميّ

> يحصل الشَّيخ مِنَ الأمير على دخْل سنويّ عبارة عنْ: خمسمئة صاع مِنَ التَّمر (خمسة أحمال الإبل)؛ ومئتي صاع مِنَ الرُّزّ، ومئة وخمسين صاعًا مِنَ القمح، ومئة وخمسين صاعًا مِنَ الشَّعير، واثني عشر صاعًا مِنَ القهوة، وثلاثين ريالًا قبْل بدْء الشِّتاء لشراء الحطب، ويحصل في المناسبات على هدايا مِنَ الكسوة والنُّقود، وبعض غنائم الغزو[١]

ونقرأ في كُتُب التَّراجم أنَّ الشَّيخ جار الله آل حمَّاد المتوفَّى سنة ١٣٢٦هـ كان قارئًا في بيت آل رشيد، وخطيبًا في جامعهم[٢]، وأنَّ الشَّيخ صالح بن سالم البنيَّان كان إمامًا في قصر برزان، ومرشدًا في الحجّ والغزوات لابن رشيد[٣]، ومدرِّسًا لأبناء محمد بن عبد الله ابن رشيد[٤]، وكاتبًا له[٥]، وتولَّى الشَّيخ سالم بن محمَّد الحِجِّيّ رئاسة ديوان متعب بن عبد العزيز بن متعب بن رشيد[٦]، وكان الشَّيخ حمد أبو عُرْف

---

(١) البادي، عوض. المرجع السَّابق، ٢/ ٥٧٩، وذَكَرَ هوبر أنَّ الشَّيخ عوض الحِجِّيّ والشَّيخ عبد الله بن مرعيّ والشَّيخ يعقوب بن محمَّد بن سعد يتلقَّى كلٌّ مِنْهم مؤونةً مِنَ القصر، لكنَّهم لمْ يبلغوا منزلة الشَّيخ محمَّد بن راشد الغنيميّ. المرجع السَّابق، ٢/ ٥٨٠.

(٢) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ١٧.

(٣) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ٦٠.

(٤) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٧٢.

(٥) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ٤٦٢.

(٦) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ٢١١.

الخطيب الكاتب الخاص لآل رشيد[١]، ومكث حسن بن محمَّد الحِجِّيّ في البصرة سبع سنوات، يصرِّف شؤون إمارة حائل فيها، وكيلًا لابن رشيد[٢]، وكان الشَّيخ حمود الشَّغدليّ مِمَّنْ يستشيرهم الأمير محمَّد بن طلال الرَّشيد، ويُدْنيه مِنْ مجلسه دائمًا[٣]، كما اتَّصل الشَّيخ سليمان بن عطيَّة المزينيّ بالأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلويّ، أمير حائل، وكان يقرأ له دروسًا في التَّفسير والحديث والتَّاريخ، في الحضر والسَّفر[٤].

ونَعْرِف مِنْ بيئة العلماء في التَّاريخ الإسلاميّ أنَّ الفقهاء عادةً ما تشرئبّ أعناقهم إلى وظيفة القضاء[٥]، إذْ عِلْم الفقه يُتَوَصَّل به «إلى تَولِّي الأوقاف والوصايا، وحيازة مال الأيتام، وتَقَلُّد القضاء والحكومة»[٦]، على أنَّنا نُلِمّ، كذلك، بأسماء نفر آخرين كانوا يُلْقون بأبصارهم صوب بلاط الحكَّام كُتَّابًا وموظَّفين وحُجَّابًا، وتراهم ينشطون لتجويد الخطّ وتحسينه فعسى أن يظفروا بإحدى الوظائف السُّلطانيَّة[٧]، وربَّما كان مِنْ أظهر ما تقع عليه عين

---

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٧.
(٢) العريفيّ، أحمد الفهد. علماء لُبْدة، ص ٢٧.
(٣) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٩٩.
(٤) آل الشَّيخ، عبد الرَّحمن بن عبد اللَّطيف بن عبد الله. مشاهير علماء نجْد وغيرهم (الرِّياض: دار اليمامة للبحث والتَّرجمة والنَّشر، ١٣٩٤هـ)، ص ٣٦٨.
(٥) البسَّام، أحمد عبد العزيز. المرجع السَّابق، ص ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٦) الغزاليّ، حُجَّة الإسلام أبو حامد محمَّد بن محمَّد بن محمَّد. إحياء علوم الدِّين (جدَّة: دار المنهاج، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م)، ١/ ٨٢.
(٧) غب، هاملتون، وهارولد باون. المرجع السَّابق، ٢/ ٢٢٧.

القارئ في الكُتُب الَّتي ترجمتْ لعلماء حائل عبارة طالما تكرَّرتْ في غير ترجمة، وهي «كان حسن الخطّ»[١]، أوْ «كان حسن الخطّ جِدًّا»[٢]، أوْ «له خطّ حسن»[٣]، أوْ «كان خطَّاطًا»[٤]، أوْ «كان خطّه حسنًا جميلًا»[٥]، أوْ «كان المترجَم كاتبًا حَسَن الخطّ نَيِّره جِدًّا، بحيث إنَّه بلغ فيه الغاية»[٦]. وكما كان الخطّ الحسن وسيلة للعمل في دواوين الإمارة، فإنَّه كان، كذلك، ذريعة للارتزاق بكتابة العهود والمواثيق، فالشَّيخ ناصر السَّعدي الهويِّد كان «حسن الخطّ جِدًّا، وكان عمدةً في التَّوثقات تعتمد القضاة خطّه، وكان يتعيَّش منها، فخَطَّ كُتُبًا كثيرة بقلمه النَّيِّر، وكان، مع قلَّة ذات اليد، متعفِّفًا عزيز النَّفس»[٧]، وكذلك كان عمر بن يعقوب بن محمَّد بن سعد، «له توثيقات وشهادات على وثائق وعقود وأوقاف»[٨]، ومنهم مَنِ اتَّخذ نسْخ الكُتُب حرفة له، عليها مدار رزقه[٩]، فسالم الشَّلش

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٥.
(٢) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٤١.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٩.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٠.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٤.
(٦) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ١٠٣.
(٧) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٤١.
(٨) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٥٧.
(٩) لتفاصيل أوفى عنْ النَّسْخ والنُّسَّاخ في حائل، يُنْظَر: العريفيّ، أحمد الفهد. **علماء لُبْدة**، ص ص ١٨، ٢١ ـ ٢٢؛ السُّويداء، عبد الرَّحمن بن زيد. **الثَّقافة والتَّعليم في منطقة حائل قبْل المدارس النِّظاميّة**، ص ص ٦٤ ـ ٦٥؛ الرُّديعان، حسَّان. **منبع الكرم والشَّمائل**، ص ص ١١٣ ـ ١٢٠؛ العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ص ١٣١ ـ ١٣٣.

المتوفَّى سنة ١٣١٠هـ «كان خطَّاطًا كَتَبَ بقلمه كُتُبًا كثيرة»[١]، ومِمَّنِ ارتزق مِنْ نَسْخ الكُتُب شكر بن حسين المتوفَّى سنة ١٣٣٧هـ[٢]، ونَسَخَ ناصر السَّعد الهويِّد نُسَخًا كثيرة مِنْ رسائل الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب[٣]، وربَّما دَلَّنا ذلك على أمرين: شغف النَّاس بكُتُب الشَّيخ ورسائله، وشِدَّة إقبالهم على النُّسَّاخ[٤]، ومِمَّا ذكره صاحب **زهر الخمائل** أن الشَّيخ عبد الله بن عمر بن دهيش المتوفَّى سنة ١٤٠٦هـ «استنسخ كُتُبًا كثيرة مِنْ كُتُب المذهب في مدينة حائل»[٥].

وتُظْهِرنا كُتُب التَّراجم على أنَّ نفرًا مِنَ العلماء كانوا يعيشون في شظف مِنَ العيش، فناصر الهويِّد كان قليل ذات اليد[٦]، قُوتُه وكَسْبُه مِنْ نَسْخ الكُتُب، والشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمَّد الهنديّ المتوفَّى سنة ١٣٤٦هـ[٧]، كان «يجلِّد المصاحف للنَّاس بالأجر»[٨]، وحمود الحسين الشَّغدليّ افتتح حياته بإصلاح

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٠.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٤.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٥.
(٤) عنْ حِرْفة النَّسْخ وأصحابها في حائل، يُنْظَر: السُّويداء، عبد الرَّحمن بن زيد. المرجع السَّابق، ص ص ٦٤ ـ ٦٨؛ العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ص ص ٢١ ـ ٢٢؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ١١٣ ـ ١٢٠.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٧.
(٦) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٤١.
(٧) جَدّ الشَّيخ عليّ الهندي صاحب **زهر الخمائل**.
(٨) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٣/ ٤٦٥. وذكر عبد الله بن محمَّد المنيف أنَّ الشَّيخ حمد بن فارس المتوفَّى سنة ١٣٤٥هـ، وهو مِنْ كبار علماء الرِّياض، كان يعيش وينفق على أهل بيته مِنْ نَسْخ المخطوطات وتجليدها. المرجع السَّابق، ص ٢٥٩.

السَّاعات والمسدَّسات والبنادق[1]، كما كان يقتات مِنْ نخيل وماشية له[2].

وأقرب الظَّنّ أنَّ طائفة مِنَ العلماء، إنْ لمْ تكنْ في خَفْض مِنَ العيش، كانتْ على شيء مِنَ اليَسَار، وبخاصَّةٍ مَنْ وَلِيَ مِنْهم وظيفة القضاء[3]، فانقطع أبناؤهم للتَّعليم سنوات كثيرة، في مجتمع يغلب عليه شظف العيش وضيق ذات اليد[4]، ثُمَّ لا يغيبنَّ عنَّا أنَّ مِنْ تقاليد المجتمع الإسلاميّ تأسيس الأوقاف، وأنَّ مِنْ بين ما تقوم به هذه الأوقاف رعاية المساجد والمدارس والعلماء وطلبة العِلْم[5]، وبهذا السَّبيل استطاعوا تَحَمُّل تكاليف الحياة، يُضَاف إلى ذلك أنَّ حكَّام نَجْد، ومِنْ بينهم محمَّد بن عبد الله الرَّشيد حاكم حائل، كان مِنْ عادتهم، فرْض رواتب وأعطيات للعلماء والطَّلبة[6]، ويذكر الرَّحَّالة هوبر أنَّ مِنْ وظائف نفرٍ مِنَ العلماء المتَّصلين بالقصْر أداء شعيرة الحجّ قضاءً

(١) الشَّغدليّ، عبد الرَّزَّاق بن حمود. المرجع السَّابق، ص٢٦.
(٢) الشَّغدليّ، عبد الرَّزَّاق بن حمود. المرجع السَّابق، ص ٢٨.
(٣) ذكر الرَّحَّالة بوركهارت أنَّ الإمام عبد العزيز بن محمَّد بن سعود قَرَّرَ للقضاة الَّذين أرسلهم إلى الأقاليم الخاضعة له مكافآت سنويَّة مِنْ بيت المال، وأنَّه حَرَّمَ عليهم أن يقبلوا أجرةً أوْ رشوةً مِنَ المتخاصمين. المرجع السَّابق، ص ٣٩٤.
(٤) العثيمين، عبد الله الصَّالح. **نَجْد قُبَيْل ظهور الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب** (الرِّياض: مكتبة الرُّشد، ١٤٣١هـ=٢٠١٠م)، ص ص ٨٢ ـ ٨٣؛ الدُّخيِّل، خالد. **الوهَّابيَّة بين الشَّرْك وتصدُّع القبيلة** (بيروت: الشَّبكة العربيَّة للأبحاث والنَّشر، ٢٠١٣م)، ص ٢٢٠.
(٥) غب، هاملتون، وهارولد باون. المرجع السَّابق، ٢/ ٢٢٥؛ الصَّبَّاغ، ليلى. المرجع السَّابق، ص ٢٤٦.
(٦) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ص ١٢٤، ١٤٦.

عن المتوفَّين مِنْ آل الرَّشيد، وأنَّ كلَّ واحد مِنْهم يتقاضَى ثلاثين مَجِيديًّا عنْ هذه الخدمة الَّتي يؤدِّيها[1].

إذن، عاشتْ بعض الأسر، مِمَّنْ وَلِيَ الأب فيها وظيفة القضاء، أوْ مِمَّنْ عَرَفَ طريقه إلى بلاط الحاكم، أوْ مِمَّنْ صار إليه نِظَارة وقْف أوْ نَحْوه = في خَفْضٍ مِنَ العيش، فزَيَّن الآباء لأبنائهم الانقطاع للعِلْم، فنشأ في حائل، ما اعتادتْه بلدات نجْديَّة أخرى، غير أسرة عِلْمِيَّة، أَلِفْنا أنْ نمرَّ بأسمائها، في كتاب **زهر الخمائل في تراجم علماء حائل**، وفي سواه مِنْ كُتُب التَّراجم النَّجْديَّة، ولنْ نَجِد كبير فرق بين ما كانتْ عليه هذه الأُسَر العِلْميَّة الحائليَّة، وما كانتْ عليه أشباه لها في الحجاز، أوِ الأحساء، أوِ القاهرة، أوْ دمشق، أوْ بغداد، أوْ ما شئنا مِنَ المدن والبلدات في كلّ أقطار الإسلام، مع فارق مهمّ جِدًّا هو أنَّ تلك الأُسَر العِلْميَّة، وما وراءها، ممَّا يمكن أنْ نعدَّه «مؤسَّسة علماء»، لمْ تتعقَّدْ مظاهرها في حائل كما تعقَّدتْ في تلك الحواضر العربيَّة والإسلاميَّة[2]، فهي أسر حديثة النَّشأة، والوظائف العِلْميَّة والدِّينيَّة كانتْ أدنى إلى السَّذاجة، فالقاضي يحكم في المسجد، وفي الشَّارع، وفي السُّوق، وفي البيت[3]، والمدرِّس يعلِّم في المسجد وفي المكتب

---

(١) البادي، عوض. المرجع السَّابق، ٢/ ٥٨٠.

(٢) كوثرانيّ، وجيه. **الفقيه والسُّلطان، جدل الدِّين والسِّياسة في إيران الصَّفويَّة - القاجاريَّة والدَّولة العثمانيَّة** (بيروت: دار الطَّليعة، ٢٠٠١م)، ص ٧١.

(٣) السَّعديّ، حصَّة بنت أحمد بن عبد الرَّحمن. **القُضاة في نجْد وأثرهم في المجتمع مِنَ القرن العاشر إلى منتصف القرن الثَّاني عشر** (الرِّياض: المؤلِّفة، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م)، ص ص ١١٧، ١٢٩ - ١٣٠؛ الشَّغدليّ، عبد الرَّزَّاق بن حمود الحسين. المرجع السَّابق، ص ٤٥. وفي التَّاريخ الإسلاميّ =

وفي البيت[1]، ومهما قيل في هذه الأُسَر العِلْميَّة، فإنَّنا نوشك أنْ نعْرف رسومها وتقاليدها وميراثها الَّذي تَحَدَّر إليها مِنَ الآباء والأجداد، فالابن يَرِث أباه، سواء أكان قاضيًا، أوْ إمامًا، أوْ خطيبًا، أوْ معلِّمًا، فيعقوب بن محمَّد بن سعد تعيَّن إمامًا وخطيبًا ومرشدًا وواعظًا ومدرِّسًا بجامع برزان حتَّى وفاته[2]، وكان ابنه عمر ينوب عنْ أبيه في إمامة جامع برزان، ثمَّ خَلَفَه فيه بعد وفاته[3]، واستمرَّتِ الإمامة في أبنائه وأحفاده زهاء قرن مِنَ الزَّمان[4]، وتولَّى سالم الصَّالح البنيَّان الإمامة بعد وفاة أبيه[5]، وتولَّى المقرئ عليّ بن محمَّد الشَّاميّ المتوفَّى سنة ١٣٦٩هـ مدرسة أخيه شكر بعد وفاته[6]، وكان خلف العبد الله الخلف قاضيًا، كما كان أبوه مِنْ قَبْلُ قاضيًا[7].

وعلى اتِّصال هذه الأُسَر العِلْمِيَّة بالنَّاس، فإنَّها لا تصاهر، في الأعمّ الأغلب، إلَّا أسرة عِلْميَّة مثلها[8]، فامتازتْ مِنْ سواها،

= كانتْ جلسات القضاء علنيَّة، فالقاضي يجلس للمتخاصمين في المسجد، وكان يقضي، أحيانًا، في داره. متز، آدم. المرجع السَّابق، ١/ ٤١٣ ـ ٤١٥.

(١) عنْ أمكنة التَّعليم في نَجْد قبل نشأة الدَّولة الحديثة، يُنْظَر: العيسى، ميّ بنت عبد العزيز. المرجع السَّابق، ص ص٢٧٤ ـ ٢٧٩؛ المنيف، عبد الله بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ص ٦٥ ـ ٦٨.

(٢) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٥٣.

(٣) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٢٣.

(٤) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ٣٥٣.

(٥) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١١٩.

(٦) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٢.

(٧) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٠٣.

(٨) العريفيّ، أحمد الفهد. مقامات حائليَّة، ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥.

واختلفتْ عليها تقاليد وأُصول صارتْ ميراثًا لها، يتوارثه الأبناء عنِ الأجداد، واستطاعتْ بذلك أنْ تحافظ على مصالحها الاجتماعيَّة والوظيفيَّة، وتلقانا مِنْ تلك الأسر البراهيم، والبنيَّان، والحمَّاد، والحِجِّيّ، والخطيب، والخلف، والرَّاشد، والعُرَيْفيّ، والشَّاعر، والمَرْشديّ، والمشاري، والمَلَق، واليعقوب[1]. على أنَّ هذه الأُسَر كانتْ قدْ بعثتْ في إمارة الجبل نهضة عِلْميَّة وثقافيَّة لها خطرها، حين أنشأ أبناؤها يعلِّمون النَّاس، ويرشدونهم، وحِين زيَّنوا لنسائهم التَّعليم[2]، وحين أنشأوا المكتبات ووقفوا الكُتُب.

كان لعلماء الدِّين مكانة سامية بين النَّاس الَّذين يعيشون بين ظهرانيهم، سواء منهم مَنِ اعتزل وظيفة السُّلطان، أوْ مَنْ وَلِيَ شأنًا مِنْ شؤونه، يَصْدُرون عنهم في غُدُوِّهم ومَراحهم، ويلوذون بهم في كبير الأمر وصغيره، وعادةً ما تُظْهِرنا كُتُب التَّراجم على مقدار ما بلغه علماء الدِّين، أيًّا كانوا، في قلوب النَّاس، عامَّتهم وخاصَّتهم، فالشَّيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور «كان ذا مكانة مرموقة ومحبوبًا لدى الخاصّ والعام»[3]، والشَّيخ يعقوب بن محمَّد بن سعد «له مكانة واحترام عند أمراء حائل، فَمَنْ دونهم»[4]، وكان الشَّيخ عبد العزيز بن صالح المرشديّ «ذا مكانة عند ولاة الأمور»[5]، وللشَّيخ سالم الصَّالح البنيَّان «محبَّة

(١) العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ٢/ ١٣٣.
(٢) العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ٢/ ١٣٣.
(٣) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ٧٨.
(٤) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٦/ ٤٩٦.
(٥) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٣/ ٣٩٥.

ومكانة عند النَّاس»[1]، وللشَّيخ سليمان بن عطيَّة المزينيّ مكانة ومحبَّة عند الأهالي وشهرة[2]، وكان الشَّيخ عليّ الصَّالح البنيَّان «ذا مكانة مرموقة ومحبوبًا لدى الخاصّ والعامّ»[3].

غير أنَّ تلك المكانة الَّتي بلغها نفر مِنَ العلماء، عند الخاصَّة والعامَّة، لمْ تَحُدَّ جمهرةً مِنْهم عنِ الصُّدُوع بحقٍّ اعتقدوه، ولوْ كان ذلك في وجه السُّلطان، فالشَّيخ محمَّد بن إبراهيم بن سيف «كان لا يخاف في الله لومة لائم، قويًّا في الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المنكر، وله مهابة، ولكلمته نفوذ، وكان محبوبًا لدى الخاصّ والعامّ»[4]، والشَّيخ صالح السَّالم البنيَّان، كان، عند الولاة، «نافذ الكلمة.. ويراسل الأمراء والقضاة ويناصحهم، ولا يخاف في الله لومة لائم، ثمَّ في الصَّدْع بأمر الله والاستماتة في سبيل الدَّعوة إليه، فتارةً يحثُّهم على العدل ويحذِّرهم مِنَ الظُّلم والجَور ومِنْ عواقبه الوخيمة»[5]، وكان عمر بن يعقوب بن سعد «قويًّا في الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم»[6]، وكان لكلمته نفوذ عند أهالي حائل[7]، وكان الشَّيخ

(١) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١١٩.
(٢) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٥.
(٣) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٢١.
(٤) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/ ٤٥٢.
(٥) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٧٢، وكان مِنْ شروطه عند تولِّيه القضاء إطلاق أمره في الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المنكر، وأن يكون تحاكُم القبائل إلى الشَّرع، لا إلى رؤسائهم وعاداتهم وتقاليدهم. البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٢/ ٤٦٣.
(٦) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٢٣.
(٧) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٢٣.

عبد الله بن خلف الرَّاشد «يصدع بكلمة الحقّ، لا يخاف في الله لومة لائم، وله مكانة مرموقة، ولكلمته نفوذ[١]، وعلى ذلك كان الشَّيخ حمود الشَّغدليّ يناصح الأمير محمَّد بن طلال الرَّشيد، ويقول له: «لا تَتَعَدَّ حُدود الشَّرع المطهَّر»[٢].

ولكنَّ تلك المكانة الَّتي بلغها غير عالم لمْ تَكُفَّ عنهم بَغْي السُّلطان وجبروته، فالشَّيخ صالح السَّالم البنيَّان ضَيَّقَ عليه ابن رشيد، ونفاه، وهُدِّدَ بالقتل، ومُنِعَ مِنَ التَّدريس، وعُزِلَ عن الإمامة[٣]، وحين تمادَى الشَّيخ عيسى المَلَاحِيّ في نقْد السُّلطان وتهييج العلماء عليه، بَطَشَ به، وآذاه، وضَرَبَه حتَّى كُسِرَتْ يده[٤].

وينبغي أنْ نَعْرِفَ أنَّ علماء حائل، ومِنْ ورائهم علماء نَجْد، كانوا قدِ اختلفوا في غير مسألة مِنْ مسائل التَّوحيد والعقيدة، وربَّما يُظَنّ أنَّ أولئك الأشياخ تركوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر، وأنَّ قُصَارَى أحدهم أن يُمْضي سحابة نهاره في العبادة والعِلْم والدَّعوة، فما لهم وللسِّياسة؟ فلها أهلها، ولها العارفون بمسالكها ودروبها. ونحن لا نماري في أنَّ العلماء والأشياخ، مِمَّنْ صَدَرُوا عنِ السَّلَفِيَّة، لمْ تكنِ السِّياسة لِتَعْنِيهم شؤونها، ما استكانَ الأمير وأهل الحُكْم لنُصُوص الشَّرْع[٥]

(١) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٣٧٦.
(٢) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٩٩.
(٣) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٧٣.
(٤) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٧٤.
(٥) الدّخيِّل، خالد. المرجع السَّابق، ص ص ٢١٦ ـ ٢٢٥.

وَلِلْحُرُوبِ رِجَالٌ يُعْرَفُونَ بِهَا وَلِلدَّوَاوِينِ كُتَّابٌ وَحُسَّابُ[1]

غير أنَّ بعضًا مِنْ مسائل السِّياسة تدخل في باب الدِّين، مهما اتَّقَوْا ذلك، وعلى الأخصّ ما يأخذ به شيوخ الدَّعوة السَّلَفِيَّة مِنْ توحيدٍ خالصٍ لله ـ تبارك وتعالَى ـ وموالاةٍ لأهله، وبراءةٍ مِمَّنْ يُظَنُّ أنَّ توحيدَه تَشُوبه شائبةٌ مِنْ شِرْك أوْ نَحْوه.

وأنتَ إذا ظهرتَ على طَرَف مِنَ النِّزاع الَّذي نَشَبَ بين أبناء البيت السُّعُوديّ، قُبَيْل ضياع حُكْمهم، تعرف أنَّ الإمام عبد الله بن فيصل بن تركي استعان بالدَّولة العثمانيَّة على أخيه سعود حين انتزع الأحساء منه سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م[2]، وتَعْرِف أنَّ الدَّولة العثمانيَّة أجابته، أوَّلًا، ثمَّ ما لبثتْ أنِ انتزعتِ الأحساء مِنَ السُّعُوديِّين، واحتلَّتْها واستأثرتْ بها دونهم[3]، وتَعْرِف، في كلام طويل[4]، أنَّ علماء نَجْد، والعارض خاصَّةً،

---

(١) البيت مِنْ دون نِسْبة في: المقدسيّ، أبو عبد الله محمَّد بن مفلح. **الآداب الشرعيّة**، حقَّقه وضبطه وخَرَّجَ أحاديثه وقَدَّمَ له شعيب الأرنؤوط وعمر القيَّام (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، الأمانة العامَّة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م)، ٢/ ١٢٥، ورواية البيت فيه: وَلِلْعُلُومِ رِجَالٌ... إلخ.

(٢) حمزة، فؤاد. المرجع السَّابق، ص ٣٤٥؛ أبو عليَّة، عبد الفتَّاح. **تاريخ الدَّولة السُّعُوديَّة الثَّانية ١٢٥٦ ـ ١٣٠٩هـ = ١٨٤٠ ـ ١٨٩١م** (الرِّياض: دار المرِّيخ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م)، ص ٢٠٣.

(٣) حمزة، فؤاد. المرجع السَّابق، ص ٣٤٦؛ أبو عليَّة، عبد الفتَّاح. المرجع السَّابق، ص ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٤) يُنْظَر: الظَّاهريّ، أبو عبد الرَّحمن ابن عقيل. **مسائل مِنْ تاريخ الجزيرة العربيَّة** (الرِّياض: مؤسَّسة دار الأصالة، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م)، ص ص ٦٠ ـ ٧٣، ٨١ ـ ١١٩؛ العنقريّ، حمد. **حُكْم محمَّد العبد الله بن رشيد لنَجْد**، =

قدِ اختلفوا في الاستعانة بالدَّولة العثمانيَّة؛ فمنهم مَنْ عَدَّها دولةً «كافرة» لا يجوز الاستعانة بها، وأنَّ مَنِ استعان بكافرٍ فهو «مرتدٌّ»؛ وطائفة تَوَسَّطَتْ، فالدَّولة العثمانيَّة عِنْدَهم «كافرة»، ولكنَّهم لا يُكَفِّرون مَنِ استعان بها؛ وذهب آخرون إلى أنَّها دولة غير كافرة، وعلى ذلك لا بأس في الاستعانة بها.

ثمَّ ماذا؟

وتفرَّعَتْ عنْ إسلام الدَّولة العثمانيَّة أوْ كفرها مسائل شغلتِ العلماء واختلفوا فيها؛ فمِنْ قائل: إنَّ الدَّولة العثمانيَّة «كافرة»[1]، وإنَّ الأحساء الَّتي انتزعها العثمانيُّون «دار كُفْر»، وأنَّ الهجرة مِنْها واجبة[2]؛ ومِنْ قائل: إنَّها دولة مسلمة، وإنَّ السُّلطان العثمانيّ ولايته شرعيَّة؛ وزاد آخرون فذهبوا إلى أنَّ البقاء في بلادٍ يَحْكُمها «الكُفَّار» ينافي عقيدة الولاء والبراء[3]، وأنَّه لا يجوز السَّفَر إلى تلك البلاد، لأنَّها بلاد «كافرة»[4]، وغلا نفر مِنْهم فلمْ يُجِزْ

= ص ٥٨؛ الرُّديعان، حسَّان. **منبع الكرم والشَّمائل في ذِكْر وآثار مَنْ عاش مِنْ أهل العِلْم في حائل**، ص ص ٥٨ ـ ٩٤؛ العبوديّ، محمَّد بن ناصر. المرجع السَّابق، ٣/ ٥٤ (ترجمة الشَّيخ إبراهيم بن حمد ابن جاسر)، ١٥/ ٦١٣ ـ ٦٣٧ (ترجمة الشَّيخ عبد الله بن عليّ العمرو، ٢١/ ١٧٠ ـ ١٩٧ (ترجمة الشَّيخ عيسى المَلَاحِيّ)؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. **كون الصَّريف، دراسة تاريخيَّة شاملة لوقائع معركة الصَّريف** (بيروت: جداول للنَّشر والتَّرجمة والتَّوزيع، ٢٠١٤م)، ص ص ٤١١ ـ ٤٢٩.

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٦١.

(٢) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ٦٥ ـ ٦٦؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٣.

(٣) الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٢.

(٤) الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٢.

مصافحة القادمين مِنْ بلاد الكُفْر[١]، ولوْ كانتْ تلك البلاد هي الأحساء الملاصقة لهضبة نَجْد[٢]! وذلك أنَّهم رأوا أنَّ الدَّولة السُّعُوديَّة إنَّما قامتْ على أساس مِنَ الدِّين متين، وأنَّه لا يزال عالقًا في ذاكرتهم أنَّ مَنْ قضَى على إمارة الدِّرعيَّة إنَّما فعل ذلك بأمر مِنَ العثمانيِّين، وأنَّ مَن يفعل ذلك لا يمكن أن يكون مسلمًا[٣]، ثُمَّ إنَّ الدَّولة العثمانيَّة لا تكفّ أيدي النَّاس عنِ البِدَع والشِّركيَّات وإقرار القوانين الوضعيَّة[٤].

عرفتْ نَجْد هذا الخلاف سنة ١٢٨٨هـ إبَّان حُكْم السُّعُوديِّين، وعرفتْه، مَرَّةً أخرى حِين تَغَلَّبَ محمَّد بن عبد الله ابن رشيد على نَجْد كلِّها واستأثر بحكمها[٥]، وابن رشيد هذا أعلن ولاءه للدَّولة العثمانيَّة، دعا لسلطانها في الجُمَع، ونادى باسمه في السُّوق[٦]، وأسفر السِّفارات إلى بلاطه[٧]، فاختلف علماء الدِّين في حائل وفي العارض وفي القصيم، مرَّةً أخرى، وأعيد الجدل مِنْ جديد، وإذا بنا إزاء ثلاثة فُرَقاء؛ فريق يكفِّر الدَّولة العثمانيَّة، ويكفِّر وُلاتها، ومِنْ بينهم ابن رشيد، أعلنْ ذلك نفر منهم، ورمز

---

(١) الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٢.
(٢) الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٣.
(٣) الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ص ٤١٢ ـ ٤١٣.
(٤) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٦٧؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٣.
(٥) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٦١.
(٦) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ١٠٣.
(٧) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ص ١٤٣ ـ ١٤٤، ١٧١؛ العريفيّ، أحمد الفهد. **مقامات حائليّة**، ١/ ٨١ ـ ٨٢.

آخرون، وأبرز المعلنين المقاومين الشَّيخ عيسى المَلَاحِيّ[١]؛ وفريق ثانٍ عنده أنَّ الدَّولة العثمانيَّة كافرة، لكنَّه لا يكفِّر ابن رشيد، وإنْ شَدَّدَ في الإنكار عليه، لموالاته كافرًا[٢]، ومِنْ هؤلاء مفتي نَجْد الشَّيخ عبد الله بن عبد اللَّطيف آل الشَّيخ، وسليمان بن سحمان[٣]، وصالح السَّالم البنيَّان، وحمود الشَّغدليّ[٤]؛ وفريق ثالث لا يرى في تبعيَّة ابن رشيد للدَّولة العثمانيَّة بأسًا، فالسُّلطان العثمانيّ مسلم، وولاية ابن رشيد صحيحة شرعًا[٥]، ومِنَ القائلين بهذا المذهب عبد العزيز المرشدي، وحمد الخطيب، وعطيَّة المزينيّ، وسالم الحِجِّيّ، وأخوه حسن الحِجِّيّ[٦].

هكذا كان شأن الثَّقافة الَّتي تَحُفّ بالدِّين، وعلى ذلك كان المنتسبون إليها، فما حظّ حائل مِنَ الأدب؛ شِعْره ونَثْره؟

---

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٧٣؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٤.

(٢) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٧٣؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٤.

(٣) الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٤.

(٤) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٧٣؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٤.

(٥) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٧٢؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٤.

(٦) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ٧٢ ـ ٧٣؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ٤١٤.

٢ ـ البحث عنْ أدب

رَجْع الصَّدَى

يعرف قرَّاء الأدب، اليومَ، غير أديب مِنْ أدباء حائل، في الشِّعْر، والقصَّة القصيرة، والرِّواية، ونقْد الأدب، ولا شكَّ في أنَّ الحياة الثَّقافيَّة كانتْ قدْ عرفتْ حُظُوظ نفرٍ مِنْهم في حركة الأدب، وربَّما لا يعني القارئ الوقوف على محلّ ميلاد هذا الأديب أو ذاك، ولا أين نشأ وترعرع؟ فكلّ الَّذي يعنيه أن يقرأ آثاره الأدبيَّة، وأن يَجِدَ فيها، حين يقرأها، لَذَّةً ومَتاعًا، يستوي في ذلك أكان الأديب مِنْ حائل، أوْ مِنَ الرِّياض، أوْ مكَّة المكرَّمة، أوِ المدينة المنوَّرة، أوِ الأحساء، والقطيف، وجازان، وعسير. وقارئ آثار عبد الرَّحمن الشَّاعر، وعاشق الهذَّال، وعبد الرَّحمن السُّويداء، وجار الله الحميد، وجبير المليحان، وناصر العديليّ، وصالح الأشقر، وسعود الجراد، وعبد الحفيظ الشَّمَّريّ، وصالح العديليّ، وسعد الهمزانيّ، وفارس الهمزانيّ، وعبد السَّلام الحميد، ومحمَّد الحمد، وشتيويّ الغيثيّ، وشيمة الشَّمَّريّ، وجزَّاع الشَّمَّريّ، وخليف الغالب = كلّ الَّذي يرجوه منهم أن يَظْهَر على أدب رائع

جميل، ولا أحسبه سيفوز فوزًا عظيمًا إذا عَرَفَ أنَّ هؤلاء الأدباء يَعْتزون إلى حائل، فناقد الأدب ومؤرِّخه إنَّما يعنيهما مقدار ما لجار الله الحميد مِنْ أثر عظيم في القصَّة القصيرة الحديثة، ولا يهمُّه، بعد ذلك، أعاش جار الله الحميد في حائل، حياته كلَّها، أمْ تَحَوَّل عنها، كما تَحَوَّلَ جبير المليحان وصالح الأشقر وعبد الحفيظ الشَّمَّريّ وسعد الهمزانيّ، فغاية النَّاقد والقارئ إنَّما أن يقرأ كلٌّ منهما أدبًا جميلًا بريئًا مِنَ الهَنَات.

لكنَّ مؤرِّخ الأدب وناقده يعنيهما، كثيرًا، معرفة جذور هذا الأدب الحديث الَّذي ينشئه أدباء حائل، أيرجع إلى أصل أصيل فيها؟ أمْ تراه استُوحِيَ مِنْ أدباء يختلفون في أوطانهم؟ وهلْ يرتفع الأدب الَّذي ينشئه جار الله الحميد وسائر أدباء حائل، إلى أصلٍ قديم، وسَلَفٍ غَبَر؟

ليس لنا إلَّا أنْ نستثير التَّاريخ ونستخبره ونفتِّش في مطاويه عنْ أصلٍ قديمٍ للأدب في حائل.

ولَمَّا كانتْ حائل ـ أوْ إمارة الجبل ـ مِنْ نَجْد، فلا جَرَمَ أنْ نفزع إلى كتاب **النَّهضة الأدبيَّة بِنَجْد** لحسن محمَّد الشَّنقيطيّ (١٣٧٠هـ = ١٩٥١م)، و**شعراء نَجْد المعاصرون** لعبد الله بن إدريس (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م)، و**الأدب الحديث في نَجْد**، لمحمَّد بن سعد بن حسين (١٣٩١هـ = ١٩٧١م)، و**الشِّعْر في الجزيرة العربيَّة في قرنين**، لعبد الله الحامد (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م)، و**اتِّجاهات الشِّعْر المعاصر في نَجْد**، لحسن الهويمل (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م)، فكلّ هذه الكُتُب، مهما

اختلفتْ، وقفتْ على معالم الأدب الحديث في نَجْد، ومعظم هذه الكُتُب انطوى على تراجم لشعراء يَعْتزون إلى أصقاع نَجْديَّة مختلفة، بلْ إنَّ عبد الله بن إدريس أثبت في كتابه قصائد لشعراء أصولهم مِنْ نَجْد، وإنْ كانتْ مساقط رؤوسهم في غيرها.

نقرأ في تلك الكُتُب كلامًا مبسوطًا عنْ شعراء نَجْديِّين، يتباينون في العمر، والتَّجربة، والقوَّة على الشِّعْر، مِنْهم مَنْ كان مقامه في الرِّياض، ومِنْهم مَنِ اعتزَى إلى الخَرْج، وعنيزة، وبريدة، وشقراء، والمَجْمَعة، والدَّوادمي، لكنَّنا لا نقف على شاعرٍ مِنْ حائل، فهلْ حِيلَ بينها وبين الشِّعْر؟ وهلِ انفسحتْ تلك الكُتُب للشُّعراء السَّابقين والمُصَلِّين والنَّاشئة مِنْ تلك النَّواحي، وسُدَّتِ الأبواب دون حائل، فلمْ نظفرْ بقصيدة لشاعر ينتسب إلى مرابع حاتم الطَّائيّ وزيد الخير؟

والحقّ أنَّه لا أثر كبيرًا ولا صغيرًا لشاعر مِنْ حائل في تلك الكُتُب الَّتي سَجَّلَتْ طلائع النَّهضة الأدبيَّة الحديثة في نَجْد، ومِنْها مَنْ كان هَمُّ صاحبه تسجيل طَرَف مِنْ نهضتها الأدبيَّة، منذ صَدَعَ الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب بدعوته. وسواء أردْنا أدبًا قديم النَّشْأة أوْ حديثها، فلنْ تَجُود تلك الكُتُب بغايتنا مِنْها، وليستْ غايتنا إلَّا الفوز بشاعر مَنْبتُه إمارة الجَبَل، إلَّا ما كان مِنْ إلماحة عَجْلَى عنْ عيسى المَلَاحِيّ، وكُلَيمة عنْ عثمان بن عبد العزيز بن منصور أوردهما عبد الله الحامد في كتابه المومأ إليه[1].

(١) الحامد، عبد الله. **الشِّعْر في الجزيرة العربيَّة، نَجْد والحجاز والأحساء** =

وربَّما كان الأجدَى أنْ نطوي صفحًا، ولا نُكَلِّف أنفسنا مشقَّة البحث عنْ أدبٍ في حائل، قبل أدبائها المُحْدثين الَّذين سُقْتُ أسماء جماعة منهم، وأنْ نَعتدَّ خُلُوَّ تلك الكُتُب، وهي ما هي، مِنِ اسْم شاعر أوْ أديب حائليّ، آيةً على مغادرة شيطان الشِّعْر لتلك المرابع، ولقدْ طالما صدحتْ بالشِّعْر القويّ المعجِب، ثُمَّ إذا بنا نفتِّش في مطاوي تلك الكُتُب عنْ قصيدةٍ، بلْ قِطْعةٍ، بلْ بيتٍ، فنخرج مِنْ كلّ ذلك صِفْر اليدين.

كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا

ولكنْ ما علينا مِنْ بأس لوْ رجعْنا البصر كَرَّتَيْن في كُتُب التَّراجم الحائليَّة والنَّجْديَّة، وهي قليلة نزرة. حَمَلَني على ذلك أنَّ مِنْ أقدم كُتُب التَّراجم النَّجْديَّة كتابَ **زهر الخمائل في تراجم حائل**، لعليّ بن محمَّد الهنديّ، ذلك الكتاب الصَّغير الَّذي اشتملتْ صفحاته القلائل على ترجمة أربعةٍ ومئة عالم، ولولا أنَّ الشَّيخ الهنديّ ـ رحمه الله ـ تَصَدَّى لهذا البحث، لظُنَّ أنَّ إمارة الجبل لمْ تعرفِ العلماء الدِّينيِّين، كذلك!

فماذا يقول زهر الخمائل؟

يَسْلُك كتاب **زهر الخمائل** طريقة كُتُب تراجم العلماء في

= والقطيف خِلَالَ قرنين ١١٥٠ ـ ١٣٥٠هـ (الرِّياض: دار الكِتَاب السُّعُوديّ، ١٤١٤هـ=١٩٩٣م). يُنْظَر عنْ عثمان بن منصور: ص ص ١٠٢، ١٠٣، ١١٩، ٢٠٩، (٢١١ ـ ٢١٢)، ٤١٣، ٤١٦، ٤١٧، وعنْ عيسى المَلَاحِيّ: ص ص ١١٣ ـ ١٥١.

تراثنا، ومِنْ عادة تلك المؤلَّفات أنَّها تُبنى على منهج واحد، قوامه ذِكْر اسْم المترجَم له، ونسبه، ومحلّ ولادته، ثُمّ تمضي في سرد شيوخه الَّذين تَلْمَذَ لهم، والكُتُب الَّتي قرأها، والإجازات الَّتي حصل عليها، وبيان تلاميذه، ومؤلَّفاته، إنْ كان له مؤلَّفات. ولا يكاد **زهر الخمائل** يباين تلك الطَّريقة إلَّا قليلًا، حتَّى لكأنَّه مِنْ كُتُب القرون الغابرة، مع أنَّه طُبِعَ في مدينة جدَّة، سنة ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م.

نقرأ في أثناء تراجمه هذه الأقوال:

الشَّيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور النَّاصريّ المتوفَّى سنة ١٢٨٢هـ «له معرفة تامَّة في الأدب والشِّعْر... [و] له شِعْر قويّ... رَدَّ عليه الشَّيخ عبد اللَّطيف في مصباح الظَّلام، وابن مشرّف في قصيدةٍ مَطْلعها: يا ظبية البان بلْ يا ظبية النُّور»[(١)]، والشَّيخ عوض بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى سنة ١٣٠٣هـ «له خطّ حسن نظيف، وله اعتناء بجمْع الكُتُب ونقْل الفوائد، إلَّا أنَّه، فيما يظهر مِنْ خطّه ونقولاته وإنشاده البيت والبيتين والأربعة والخمسة، لا يُحْسن العربيَّة ولا العَرُوض»[(٢)]، والشَّيخ سالم بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى سنة ١٣٢٤هـ «كان عالمًا ديِّنًا فصيحًا، له يد طولَى بالعربيَّة والفرائض، وله قصائد مليحة تدلّ على تذوُّق الشِّعْر ومعرفة تامَّة للعروض»[(٣)]، والشَّيخ

(١) الهنديّ، علي بن محمَّد. **زهر الخمائل**، ص ص ٨ ـ ٩.

(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد، المرجع السَّابق، ص ٩.

(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١١.

صالح بن سالم ابن محسن آل بنيَّان المتوفَّى سنة ١٣٣٠هـ «بعد أنْ تولَّى القضاء حصل له مِحَن مِنْ بعض إخوانه طلبة العِلْم، فقالوا فيه أشعارًا بعضها ركيك، ورَدَّ عليهم بقصيدةٍ مطلعها: تراكيب نظْم هيَّجتْ لي ما حصلْ»[١]، والشَّيخ عطيَّة السُّليمان المزينيّ المتوفَّى سنة ١٣٣٠هـ، «لَمَّا مات شيخه عبد العزيز المرشديّ رثاه بقصيدة لا بأس بها»[٢]، والشَّيخ ناصر السَّعد الهُوَيِّد المتوفَّى سنة ١٣٣٩هـ، كان «كثيرًا ما يستشهد مِنْ زهديَّات أبي العتاهية»[٣]، والشَّيخ حسن بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى سنة ١٣٤٣هـ «كان مولعًا بالكُتُب وحفْظ الأدبيَّات والحِكَم والوصايا، حسن القراءة جدًّا، كان وسطًا بالفقه والفرائض والعربيَّة»[٤].

ونلقى فيه، كذلك: الشَّيخ حمد بن محمَّد أبو عُرْف الملقَّب بالخطيب المتوفَّى سنة ١٣٤٤هـ «الشَّيخ اللُّغويّ»[٥]، «كان له إلمام بكلّ فنّ مِنْ معاني وبديع وبيان وحديث وأصول حديث والفقه وأصوله والنَّحو والفرائض وعَروض الشِّعْر، غير أنَّه لا يقول الشِّعْر»[٦]، ونقرأ فيه أنَّه «كان إمامًا في النَّحْو لا يجارَى فيه»[٧]، والشَّيخ عبد الله بن سليمان ابن بليهد المتوفَّى سنة ١٣٥٩هـ «كان

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ص ١٣ ـ ١٤.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٥.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٦.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٦.
(٦) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ص ١٦ ـ ١٧.
(٧) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٧.

النَّاس يتعجَّبون مِنْ فصاحته وتقريره وتحليله للمسائل وإخراج النَّتيجة مِمَّا يماثلها، حتَّى كأنَّ كُتُب الدُّنيا بين عينيه، إذا تكلَّم بشيْء قلتَ هو الإمام فيه، سواء أكان حديثًا أوْ تفسيرًا أوْ فقهًا أوْ عربيَّةً أوْ فرائضَ أوْ تجارةً أوْ زراعةً أوْ صناعةً»[١]، والشَّيخ سليمان بن عطيَّة المزينيّ المتوفَّى سنة ١٣٦٣هـ «كان مشغوفًا بجمْع الكُتُب الأدبيَّة أيضًا ومطالعتها، لا سيَّما تآليف الأدباء الكبار»[٢]، والشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب بن عقيل المتوفَّى سنة ١٣٦١هـ «كان عالمًا مجتهدًا له إدراك دقيق بالفقه وأصوله والنَّحو والفرائض»[٣]، والشَّيخ حمود الحسين الشَّغدليّ المتوفَّى سنة ١٣٩٠هـ «كان غالب مَن يُحْسنون العربيَّة والفرائض في تلك البلاد مِنْ تلاميذه»[٤]، والشَّيخ عليّ بن صالح البنيَّان المتوفَّى سنة ١٣٩٩هـ «له ولع شديد بالشِّعْر، يحفظ مِنْه الجيِّد النَّزيه، وكلّ ما اشتمل على حِكَم وأمثال ونصائح ووصايا»[٥]، والشَّيخ عبد الكريم بن صالح بن سالم البنيَّان المتوفَّى سنة ١٤٠٣هـ «له معرفة تامَّة بالعربيَّة والفرائض»[٦]، وعبد الرَّحمن بن عبد الله الملق المتوفَّى سنة ١٤٢٩هـ «له شِعْر حسن لطيف»[٧].

---

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٩.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢١.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٢.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٣.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٥.
(٦) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٦.
(٧) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٨.

لمْ ينضبِ الزَّيتُ ولمْ يُطْفَأ المصباح

إذن، كان في حائل شِعْر، وكان فيها مَنِ اتَّصل بالأدب واللُّغة والنَّحْو، ولمْ يكنْ ذلك غريبًا ولا شحيحًا، وحَسْبُنا أنَّ غير عالم مِنْ أبنائها أوْ مِمَّنْ وفد عليها اتَّصل بالشِّعْر، مِنْهم مَن يقول البيت والبيتين والثَّلاثة، ومنهم مَن يقول القصيدة، بلْ إنَّنا واجدون فيهم مَنْ كان الشِّعْر والقوَّة عليه مِنْ أظهر صفاته، وبين هؤلاء وأولئك نفر استهواهم الأدب، واستظهروا قدْرًا صالحًا مِنْ آياته، وأنشأوا يجمعون كُتُب الأدب ويحرصون عليها، كجمْعهم كُتُبَ الدِّين وحرصهم عليها.

وأَمْر الشِّعْر في حائل ليس بالغريب ولا بالعجيب؛ ألفَى علماء الدِّين في أنفسهم رياضة على نظْمه فخاضوا فيه، مَكَّنتْهم عليه معرفة للعَروض والعربيَّة، وربَّما وجدوا فيه ما يميِّزهم مِنْ أقرانهم، ويكفي أحدهم أن يقال له: شاعر! وابحثْ في بيئات العلوم الشرعيَّة والعربيَّة، مهما اختلفتِ الأمكنة والأزمنة، وأَدِرْ بصرك في كُتُب التَّراجم والسِّيَر تَجِدْ في تراجم العلماء قدرة على الشِّعْر[1]،

---

(١) الحلو، عبد الفتَّاح محمَّد. **شعراء هَجَر مِنَ القرن الثَّاني عشر إلى القرن الرَّابع عشر** (القاهرة: مطبعة الفجَّالة، ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م)، ص و؛ عانوتيّ، أسامة. **الحركة الأدبيَّة في بلاد الشَّام خلال القرن الثَّامن عشر** (بيروت: منشورات الجامعة اللُّبنانيَّة، ١٩٧١م)، ص ٥١؛ الحبْشيّ، عبد الله محمَّد. **الأدب اليمنيّ عصر خروج الأتراك الأوَّل مِنَ اليمن ١٠٤٥ ـ ١٢٨٩هـ = ١٦٣٥ ـ ١٨٧٩م** ([صنعاء؟]: الدَّار اليمنيَّة للنَّشْر والتَّوزيع، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م)، ص ٣٧٧؛ الشَّطّيّ، سليمان. **الشِّعْر في الكويت** (الكويت: المجلس الوطنيّ للثَّقافة والفنون والآداب، ٢٠١٤م)، ص ص ٤١ ـ ٤٢.

اكتفى بعضهم بقليله، واشتُهِر آخرون بكثيره، وعسى أنْ رأى علماء حائل في أشياخهم مِنْ أئمَّة الدَّعوة السَّلفيَّة في البلدات النَّجْديَّة، ولا سيَّما العارض، مَنِ اتَّخَذ الشِّعْر وسيلة له، فما لَبِثَ أنِ اقتفى التِّلميذ أثر أستاذه.

إذنْ، عَرَفَ علماء حائل الدِّينيُّون الشِّعْر، قليلًا أوْ كثيرًا، على أنَّ الشِّعْر الَّذي نظموه، وإنْ فاته كثير مِنْ روعة الشِّعْر وخياله، فحسْبهم أنَّهم تَحَوَّلُوا بلغة الكلام مِنْ عامِّيَّة خالصة كان عليها مظهر الشِّعْر في حائل[١]، بلْ في نجْد كلِّها[٢]، إلى لغة عربيَّة فصيحة، يحتفل أصحابها فيه بما تَضطرُّهم إليه اللُّغة، في نحوها وصرفها وأبنيتها، فصار لنا مِنْ ذلك طائفة مِنَ الشِّعْر رَشَحَ فيها جبين أصحابها، وهم يكابدون معالجة الشِّعْر الفصيح، ولمْ تسعفهم مقدرتهم على اللُّغة والعَرُوض ورياضة الكلام، فجاء شِعْرهم، وعليه مِنَ العامِّيَّة مِسْحة.

ويستبين لنا في ما قيَّده كتاب **زهر الخمائل** والكُتُب الَّتي عُنِيَتْ بتراجم علماء حائل، أنَّ نظْم الشِّعْر كان شائعًا شيوعًا كبيرًا لديهم، يدلّ على ذلك أمور، أهمُّها أنَّ ما قالوه مِنْ شِعْر كان بعضٌ مِنْه تعبيرًا عنْ عواطف إنسانيَّة مركوزة في طباعهم تجاه

---

(١) العثيمين، عبد الله الصَّالح. **نشأة إمارة آل رشيد**، ص ٨٣. وعنْ قوَّة الشِّعْر وذيوعه في حائل، يقول الرَّحَّالة جورج أوغست ڤالين: «فالشِّعْر في جبل شمَّر هو في بيته، والنَّاس، رجالًا ونساءً، ترتجله، ويحفظ الصَّغير والكبير قصائد كثيرة». **رحلات ڤالين إلى جزيرة العرب**، ص ١٤٩.

(٢) الحامد، عبد الله. المرجع السَّابق، ص ص ٨٠ ـ ٨١.

شيوخهم وأصدقائهم، يمدحونهم إنِ استوجبوا المديح، ويرثونهم فيعدِّدون مآثرهم ومناقبهم، ومِنْ ذلك أنَّ الشَّيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور المتوفَّى سنة ١٢٨٢هـ، مدح شيخه داود بن جرجيس[١]، خصْم الدَّعوة السَّلَفِيَّة العتيد، حين قَدِمَ نَجْدًا، بقصيدة جاء فيها[٢]:

خَلِيلَيَّ هَلَّا تُنْظِرَانِي لِحَاجَةٍ ... أُقِيمَا فَوَاقًا مِنْ نَهَارٍ كَمَا البَدْرِ

عَسَى تَقْتَضِي الحَاجَاتُ مِنِّي رِسَالَةً ... إِلَى الجِسْرِ مِنْ بَغْدَادَ بِالودِّ واليُسْرِ

بَهَا بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتٌ مِنَ الهُدَى ... تُحَطِّمُ مِنْهاجَ الخَوَارِجِ بِالصَّعْرِ

ويذكر المؤرِّخون أنَّ هذه القصيدة لمْ تظهرْ، ولمْ يعرفْها النَّاس إلَّا بعد وفاة صاحبها[٣]، غير أنَّ التَّاريخ يحفظ لها أنَّها أثارتِ النَّقْع، فتصدَّى لها غير عالم مِنْ علماء الدَّعوة السَّلَفِيَّة في كلّ نَجْد، وردُّوا عليها بقصائد على الوزن نفْسه والقافية نفْسها، مِنْهم عبد الرَّحمن بن حسن، وابنه عبد اللَّطيف،

---

(١) داود بن سليمان البغداديّ النَّقشبنديّ الخالديّ الشَّافعيّ، ابن جرجيس (١٢٣١ ـ ١٢٩٩هـ = ١٨١٦ ـ ١٨٨٢م): فقيه وأديب مِنْ أهل بغداد، له جمهرة مِنَ المصنَّفات، مِنْها **أشدّ الجهاد في إبطال دعوَى الاجتهاد**، ردَّ به على حنابلة نَجْد فيما نُسِبَ إليهم مِنْ دعوَى الاجتهاد. الزِّرِكْلِيّ، خير الدِّين. **الأعلام** (بيروت: دار العِلْم للملايين، ١٩٨٤م)، ٢/ ٣٣٢.

(٢) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/ ٩٣؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ١٥٢؛ ابن منصور، عثمان بن عبد العزيز. **فتح الحميد في شرح كتاب التَّوحيد**، تحقيق سُعُود بن عبد العزيز العريفيّ وحسين بن جليعب السَّعيديّ (مكَّة المكرَّمة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٤هـ)، ١/ ١٢٠ ـ ١٢١. **مقدِّمة التَّحقيق**.

(٣) **مقدِّمة تحقيق فتح المجيد**، ١/ ١٢١.

وأحمد بن مشرَّف، وعبد الله بن عبد الرَّحمن أبا بطين، وعبد الرَّحمن بن مانع، وحمد بن عتيق، وعبد العزيز ابن حسن الملهميّ، وأحمد بن إبراهيم بن عيسى، وسليمان بن سحمان[١].

وعثمان بن عبد العزيز بن منصور هذا مِنْ أعيان العلماء في نجْد، وهو مِنْ وراء ذلك مِنْ أقدم شعراء الفصحى فيها، قبل أنْ تَذُرَّ في الأفق شمس العصر الحديث[٢]، ويظهر على قصيدته هذه سَمْتٌ عربيٌّ يباين ما عليه الشِّعْر في عهده في غير بيئة عربيَّة، وكأنَّه حين ظَنَّ في نَفْسه قدرة على النَّظْم اتَّجه، مِنْ فوره، إلى شِعْر يشبه ما كان عليه الشِّعْر في نَجْد، في عصوره القديمة[٣]، وأعرض عنْ تلك الألاعيب الَّتي أُغْرِم بها شعراء العصر، وكأنَّما لمْ تستهوه، وهو المصاقب لها في العراق الَّذي اختلف إليه، واتَّصل بعلمائه وأدبائه. وتجلو لنا قصيدته الموسومة بـ «الرَّدّ الدَّامغ» الَّتي ردَّ فيها على الشَّيخ عثمان بن سند البصريّ النَّجديّ، لَمَّا تَعَرَّض هذا الأخير للشَّيخين أحمد ابن تيميَّة ومحمَّد بن عبد الوهَّاب = لغة مُحْكمة متينة، ولوْ كان موضوعها مجادلةً ومناظرةً وسجالًا:

---

(١) البسَّام، عبد الله. المرجع السَّابق، ٥/ ٩٣ ـ ٩٥؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ١٥٢ ـ ١٥٣. وعنْ هذه القصيدة ونقائضها يُنْظَر: الحامد، عبد الله. المرجع السَّابق، ص ص ١٠٢ ـ ١٠٣؛ مقدِّمة تحقيق **فتح المجيد**، ١/ ١٢٢.

(٢) الحامد، عبد الله. المرجع السَّابق، ص ٢٠٩.

(٣) لابن منصور عناية شديدة بالشِّعْر، ولقدْ عُنِيَ بإيراد شواهد كثيرة مِنْه في شرحه لكتاب التَّوحيد، وذكر محقِّقا الكتاب أنَّه خَصَّ الشَّاعر جرير بن عطيَّة بفضل عنايته، وكان كثيرًا ما يستشهد به، ورَجَّحا أنَّه ربَّما حفظ كثيرًا مِنْ ديوانه. ١/ ٦٢.

أَلَا هَلْ لِحَيٍّ فِي النِّزَالِ فَإِنَّنِي ... أَرَى الحَرْبَ دَارَتْ بَيْنَنَا فَهْيَ تُوْضِعُ
فَنُبِّئْتُ أنَّ البُومَ يَطْلُبُ جَمْعَنَا ... وَهَلْ يَسْتَطِيعُ البُومُ نُورًا يُشَعْشَعُ

ويغلب على ظَنِّي أنَّ الاضطراب والرَّكاكة اللَّذين ظهر شيْء منهما في غير بيت مِنْ أبياتها، مَبْعثهما تلك المكابدة الَّتي يحسّها شاعر في عصر طغتْ فيه العامِّيَّة، فلمْ يستطعِ الخاصَّة النَّجاة منها، وأنَّ عثمان بن عبد العزيز بن منصور يغلبه تكلُّف العلماء نَظْم الشِّعْر، والشِّعْرُ فرس حرون! ولا يخالجني شكّ في أنَّ للنُّسَّاخ يدًا في تشويه بعض أبياتها[1]، وإلَّا فالقصيدة، إذا ما اطَّرْحنا أبياتها القلِقة، كأنَّما هي قدْ نُحِتَتْ نحْتًا[2]:

فَلَهْوَ تَقِيُّ الدِّينِ وَانْتَ بِضِدِّهِ ... وَلَهْوَ سِرَاجُ المِلَّةِ المُتَشَعْشِعُ
وَلَهْوَ إِمَامُ المُقْتَدِينَ يَقُودُهُمْ ... إِلَى كُلِّ قَوْلٍ لِلْمُضِلِّينَ يَقْمَعُ
أَقَرَّتْ لَهُ الأَحْبَارُ بِالعِلْمِ والتُّقَى ... وَزُهْدٍ بِهِ أُخْزِيتَ مَا دَامَ لَعْلَعُ
وَيَكْفِيهِ فَضْلًا عَالِيًا أَنَّ عِلْمَهُ ... لَكَالشَّمْسِ يَغْشَى عَيْنَ مَنْ يَتَبَدَّعُ
وَأَنْتَ فَلَمْ نَعْلَمْ لَكَ اليَوْمَ ذَاكِرًا ... بِذِكْرٍ يَرَاهُ عَالِمُ القَوْمِ يَرْفَعُ

وحين عاد الشَّيخ عبد الله بن عبد اللَّطيف آل الشَّيخ إلى الرِّياض سنة ١٣٠٨هـ، بعد أنْ أمضى حولًا كاملًا في حائل،

---

(١) وهذا شائع في مجمَل شعره. وإلى ذلك ذهب محقِّقا كتابه **فتح المجيد**، ١/ ١٢١.

(٢) ابن حُمَيْد، محمَّد بن عبد الله النَّجْديّ ثُمَّ المكِّيّ. **السُّحُب الوابلة على ضرائح الحنابلة**، حَقَّقه وقَدَّمَ له وعَلَّقَ عليه بكر بن عبد الله أبو زيد وعبد الرَّحمن بن سليمان العثيمين (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م)، ٢/ ٧٠٦ ـ ٧٠٨، (هامش التَّحقيق).

حزن تلميذه الشَّيخ صالح السَّالم البنيَّان عليه حزنًا شديدًا وأنشأ يقول[١]:

شَوْقِي إِلَى الشَّيْخِ شَوْقُ الوَاجِدِ الدَّاءِ ... إِلَى الشِّفَاءِ أَوِ العَطْشَانِ لِلْمَاءِ
قَدْ كَانَ قَلْبِي المُعَنَّى قَبْلَ رُؤْيَتِكُمْ ... فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ مَثْوًى بِبَطْحَاءِ
يَوْمًا بِحَزْوَى وَيَوْمًا بِالعَقِيقِ وَبَالـ ... ـعُذَيْبِ يَوْمًا، وَيَوْمًا بِالخُلَيْصَاءِ
فَمُذْ بَدَا مِنْ مُحَيَّاكُمْ لَهُ قَمَرٌ ... بِهِ اسْتَنَارَ وَجَلَّى كُلَّ غَمَّاءِ
وَارْتَاحَ مِنْ بَعْدِ كَرْبِ الهَمِّ وَانْتَشَقَتْ ... أَرْوَاحُهُ سَجْسَجًا مِنْ بَعْدِ نَكْبَاءِ
يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ مَا لِي فِي فِرَاقِكُمُ ... مِنْ طَاقَةٍ فَاسْتَوَى قَلْبِي وَأَعْضَائِي
هَذَا جَزَا النَّفْسِ مِنِّي حَيْثُ مَا سَمِعَتْ ... إِحْلَالَ شَخْصٍ لَكُمْ إِلَّا سُوَيْدَائِي
لَوْ خِلْتُ أَنَّ لَهِيبَ الحُبِّ يَحْرِقُ فِي ... يَوْمِ الفِرَاقِ مِنَ التَّوْدِيعِ أَحْشَائِي
كُنْتُ اكْتَفَيْتُ بِأَدْنَى مَا يَقُومُ بِهِ ... حَبْلُ الوِدَادِ الَّذِي بَيْنَ الأَخِلَّاءِ
لَهْفِي عَلَى فَاضِلٍ أَحْيَا بِرُؤْيَتِهِ ... أَشْهَى لِقَلْبِيَ مِنْ طِبِّ الأَطِبَّاءِ
فَكَيْفَ إِذْ نِلْتُ كَأْسًا لِلْحَدِيثِ فَلَا ... أَدْرِي: كَلَامٌ بَدَا أَمْ كَأْسُ صَهْبَاءِ؟
يَا لَائِمِي لَا تَلُمْ خِلًّا بِهِ أَسَفٌ ... عَلَى مُحِبٍّ نَأَى عَنِّي بِآرَاءِ
وَاعْذُرْ فَمَا شَوْقُهُ يَبْغِي مُعَانَقَةً ... لِوَصْلِ لَيْلَى وَلَا نَيْلًا لِحَسْنَاءِ

---

(١) العريفيّ، أحمد الفهد. **مقامات حائليّة**، ١/ ٨٥ ـ ٨٦؛ القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠. مع اطِّراح أبيات، واختلاف يسير. وتُنظَر القصيدة كاملةً في: الرُّديعان حسَّان. **فضيلة الشَّيخ صالح بن سالم آل بنيّان، حياته، آثاره، جهوده العِلْميّة، تحقيق ديوانه** (الرِّياض: دار التَّوحيد للنَّشر، ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م)، ص ص ١٦٤ ـ ١٦٥، وإنْ شاب أبياتها تطبيع وتصحيف.

لَكِنَّمَا اشْتَاقَ مَنْ طَابَتْ مَجَالِسُهُ ... وَاشَوْقَ نَفْسِي إِلَى رُؤْيَا الأَحِبَّاءِ
هَذَا عَلَيْكُمْ سَلَامُ اللهِ مَا طَلَعَتْ ... شَمْسٌ وَسَارَتْ بِأُفْقٍ كُلَّ آنَاءِ

ومِنْ شِعْر الحنين إلى المنازل والدِّيار، قصيدة للشَّيخ سليمان بن عطيَّة المزينيّ يحنّ فيها إلى حائل[1]:

دِيَارُ المَعَالِي بَيْنَ سَمْرَاءِ حَائِلٍ ... وَبَيْنَ أَجَا مَعْمُورَةٌ بِالفَضَائِلِ
رَسَا فِي مَغَانِيهَا سُمُوٌّ وَرِفْعَةٌ ... وَمَجدٌ أَثِيلٌ شَائِعٌ فِي القَبَائِلِ
فَلِلَّهِ مَا أَنْقَى هَوَاهَا مِنَ الأَذَى ... وَأَطْيَبَهَا بَيْنَ البِلَادِ لِنَازِلِ
فَفِيهَا انْشِرَاحُ الصَّدْرِ مِنْ حَرَجِ الأَسَى ... وَتَفْرِيجُ هَمٍّ فِي الخَوَاطِرِ شَاغِلِ
بِهَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ عِنْدَ حُلُولِهَا ... بِهَا، بَلْ تَرَاهَا مِنْ خِيَارِ المَنَازِلِ
تَضَمَّنَتِ العَلْيَا قَدِيمًا وَأَسَّسَتْ ... عَلَى الشَّرَفِ المَحْمُودِ مِنْ كُلِّ طَائِلِ
دَلِيلٌ عَلَى ذَا أَنَّ مَنْ حَلَّ دَارَهَا ... تَعَلَّقَ فِيهَا قَلْبُهُ غَيْرَ زَائِلِ
وَإِنْ غَابَ عَنْهَا شَارِبٌ مِنْ زُلَالِهَا ... ثَنَى عَزْمَهُ شَوْقًا لِبَلْدَةِ حَائِلِ
فَكَمْ قَائِلٍ: حُيِّيتَ يَا بَلَدَ النَّدَى ... بِسَارِيَةٍ تَهْمِي عَلَيْكَ بِوَابِلِ
هِيَ البَلَدُ الزَّاكِي هَوَاءً وَتُرْبَةً ... وَسَلْسَالُ مَاءٍ فَائِقٍ فِي المَنَاهِلِ
جَرَى مَاؤُهَا مِنْ شَامِخَاتِ جِبَالِهَا ... تَلَقَّتْهُ مِنْ فَيْضِ الغَوَادِي الهَوَاطِلِ
فَيَهْبِطُ مِنْ سَامِي سَمَاءٍ مَسِيلُهُ ... عَلَى كُلِّ نَبْتٍ طَيِّبِ الرِّيحِ فَاضِلِ

---

(١) المزينيّ، سليمان بن عطيَّة. ديوان سليمان بن عطيَّة المزينيّ، تحقيق عبد العزيز بن فرج الشَّنتوف، اعتنى بتحقيقه وإخراجه بندر بن عبد الله بن سليمان العطيَّة (الرِّياض: د.ن، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م)، ص ١٥٧، والبيت الأخير في: القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٤.

يَـفِـيـضُ عَـلَـى وَادٍ نَـقِـيٍّ تُـرَابُـهُ فَبَطْحَاؤُهُ المَرْجَانُ يَبْدُو لِخَائِلِ
أَلَذُّ مِنَ الشَّهْدِ الشَّهِيِّ نَمِيرُهُ يَفُوحُ لَهُ أَرْجٌ يَطِيبُ لَنَاهِلِ
فَكَمْ قَائِلٍ حُيِّيتَ يَا بَلَدَ النَّدَى بِسَارِيَةٍ تَهْمِي عَلَيْكَ بِوَابِلِ

واشتاق القاضي عليّ بن عبد العزيز الأحمد العبَّاس إلى حائل، في أثناء مقامه بالجوف، سنة ١٣٥٩هـ، فأنشأ يقول[1]:

أَلَا مَنْ يُبْلِغُ الإِخْوَانَ أَنِّي أَسِيرُ صَبَابَةٍ كَلِفٌ غَلِيلُ
إِلَى لُقْيَا مَعَاشِرِ مَنْ أَقَامُوا بِحَائِلَ يَا لَهَا وَطَنٌ جَمِيلُ
بِلَادٌ طَالَمَا اشْتُهِرَتْ بِعِزٍّ وَفَخْرٍ لَا يُضَاهِيهَا مَثِيلُ
وَقَدْ أَمِنَتْ مَنَاهِجُهَا بِشَهْمٍ هِزَبْرٍ لَا يُهَابُ إِذَا يَصُولُ
أَبِيٌّ أَلْمَعِيٌّ حَازَ مَجْدًا تَسَامَى لِلْعُلَا وَلَهَا يَطُولُ
أَمِيرٌ لَمْ يَزَلْ كَهْفًا مَنِيعًا لِمَظْلُومٍ، وَظَالِمُهُ ذَلِيلُ
شَمَائِلُهُ تَفُوقُ العَدَّ حُسْنًا حَبَاهُ اللهُ عِزًّا لَا يَزُولُ
فَوَاغَوْثَاهُ مِنْ شَوْقِي وَوَجْدِي إِلَى وَطَنٍ بِهِ صَحْبٌ فُضُولُ
إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَانُ قَلْبِي شَجِيٌّ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ عَلِيلُ
وَعَيْنِي لَمْ تَزَلْ تَهْمِي بِدَمْعٍ وَجِسْمِي ـ لَمْ يَزَلْ شَوْقًا ـ نَحِيلُ
وَشَوْقِي شَوْقُ مَعْسُورٍ لِيُسْرٍ أَوِ الحَيْرَانُ بَانَ لَهُ السَّبِيلُ
وَشَوْقِي كُلَّ آنٍ فِي ازْدِيادٍ فَلَمْ أَبْرَحْ أُكَابِدُ مَا يَهُولُ

(١) العريفي، أحمد الفهد. علماء لُبدة، ص ١٥٧؛ الرُّديعان، حسَّان. منبع الكرم والشَّمائل، ص ص ٣٩١ ـ ٣٩٢، ٧١٩.

مِنَ الأَفْزَاعِ مِنْ كَمَدِي وَوَجْدِي وَمَا أُبْدِيهِ مِنْ شَوْقِي قَلِيلُ

وأجابه الشَّيخ حمود الحسين الشَّغدليّ بقصيدةٍ، مِنْها هذه الأبيات[1]:

لِفَرْطِ الشَّوْقِ أَنْشَأَ مَن يَقُولُ: أَسِيرُ صَبَابَةٍ كَلِفٌ غَلِيلُ
إِلَى لُقْيَا الأَحِبَّةِ مَنْ أَقَامُوا بِدَارٍ بَيْنَهُمْ يَحْلُو المَقِيلُ
وَيَشْتَاقُ الدِّيَارَ وَسَاكِنِيهَا وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ هُوَ الأَصِيلُ
وَيِشْكُو حَرَّ وَجْدٍ مُسْتَمِرٍّ إِلَى اللُّقْيَا وَشَوْقًا لَا يَزُولُ
وَمِنْ عِظَمِ الصَّبَابَةِ قَالَ نَظْمًا كَنَظْمِ الدُّرِّ والمَعْنَى جَلِيلُ

ورثى الشَّيخُ عبدُ الرَّحمن بن عبد الله المَلَق صاحبَه وصديقَه الشَّيخَ إبراهيمَ بن حمَّاد الصَّايغ المتوفَّى سنة ١٤١٩هـ، بقصيدة مؤثِّرة، مِنْها هذه الأبيات[2]:

لِمَاذَا غِبْتَ عَنِّي فِي غِيَابِي غِيَابًا غَيْرَ مَرْجُوِّ الإِيَابِ
لِمَاذَا غِبْتَ عَنِّي يَا صَدِيقِي رَفِيقَ العُمْرِ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابِ
لِمَاذَا؟ قُلْتُهَا، يَا رَبِّ عَفْوًا فَهَلْ يَأْتِي لِمَاذَا مِنْ جَوَابِ؟
وَايْمُ اللهِ لَا يَأْتِي جَوَابٌ وَلَوْ نَادَيْتُ فِي عَالِي الهِضَابِ
عَنِ ابْرَاهِيمَ أَسْأَلُ كُلَّ أَهْلِي فَقَالُوا لِي بِحُزْنٍ وَاكْتِئَابِ:
مَسَاءَ الأَمْسِ إِبْرَاهِيمُ أَمْسَى مَعَ الأَبْرَارِ فِي أَعْلَى رِحَابِ

(١) الشَّغْدليّ، حمود بن عبد الرَّزَّاق الحسين. المرجع السَّابق، ص ١١٦.
(٢) المَلَق، عبد الرَّحمن بن عبد الله. **ديوان الشَّيخ عبد الرَّحمن بن عبد الله الملق** (حائل: دار الأندلس للنَّشر والتَّوزيع، ١٤٣٦هـ=٢٠١٥م)، ص٢٣.

رِحَابِ اللهِ نَرْجُوهُ تَعَالَى ... لَهُ الزُّلْفَى وحُسْنًا فِي المَآبِ
فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ حَوْلِي ... وَقَابَلَنِي الأَسَى مِنْ كُلِّ بَابِ

ولسالم الصَّالح البنيَّان أبيات قالها حين وَلِيَ الملك عبد العزيز مكَّة المكرَّمة، وعسَى أنْ نظفر فيها بشيْء مِنْ مائيَّة الشِّعْر وعُذوبته، مهما وَفَتْ لمعاني الإيمان والكفر[1]:

أَرَى وَصْلَ لَيْلَى مِنْ أَجَلِّ الفَوَائِدِ ... وَمَنْ لِي بِوَصْلٍ لِلْحِسَانِ الخَرَائِدِ
فَقَدْ زَادَ قَلْبِي بُعْدُهُنَّ تَلَهُّبًا ... وَحَارَبَ أَجْفَانِي الكَرَى فِي المَرَاقِدِ
تَكُرُّ عَلَى نَفْسِي الهُمُومُ مَعَ الأَسَى ... وَطَوْرًا أُسَلِّيهَا بِقُرْبِ المَوَاعِدِ
وَأَبْحَثُ عَنْهُنَّ الوُفُودَ إِذَا أَتَوْا ... وَأَسْأَلُ مِنْ رَكْبِ الفَلَا غَيْرَ وَاحِدِ
فَلَمْ أَلْقَ مَن يُنْبِي كَئِيبًا مُتَيَّمًا ... وَيُطْفِئُ نِيرَانَ الأَسَى وَالكَوَامِدِ
سِوَى سَمَرِي فِي ذِكْرِ أَخْبَارِ طَيْبَةٍ ... لأُسْمِعَ عَنْ تَسْلِيمِهَا خَيْرَ عَائِدِ
فَلَهْوَ الَّذِي يَبْرِي مِنَ الدَّاءِ ذِكْرَهَا ... وَيُطْفِي مِنَ الأَحْشَا لَهِيبَ التَّوَاقُدِ
فَقَدْ جَاءَتِ البُشْرَى بِتَسْلِيمِ يَثْرِبٍ ... وَإِرْغَامِ أَصْحَابِ الخَنَا وَالمَفَاسِدِ
وَإِحْرَازِ قُوَّاتٍ بِهَا وَذَخَائِرٍ ... كَذَاكَ بِحَوْلِ اللهِ هَدْمُ المَعَابِدِ

أدواء النَّحْو ومشكلات اللُّغة

لَمْ يَسْلَمْ شِعْر علماء حائل، في ذلك العهد، مِنْ أدواء اللُّغة، ومآخذ النَّحْو، ومشكلات العَرُوض، وإنَّنا لَنَظْهر على شِعْرٍ، مِنَ البيِّن فيه، أنَّ أصحابه حديثو عهد بالشِّعْر الفصيح، وأساليب

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٧٠٤.

الكلام، وربَّما رأوْا أنَّ مِنْ تَمَام آلة العِلْم الشَّرعيّ أن يكون العالِم الدِّينيّ شاعرًا، وحين أخذ نَفْسه بقول الشِّعْر، تبيَّن له أنَّ مكابدة النَّظْم غير معالجة النَّثر، وأنَّ للشِّعْر، مهما يكنْ، تراكيبه الملائمة للبحر الَّذي عليه القصيدة، ثُمَّ إنَّ نَجْدًا لَمْ تكنْ قدْ بَرِئَتْ مِنْ سطوة العامِّيَّة والشِّعْر العامِّيّ على شعرائها وعلمائها، فبقيَ أثرٌ للعامِّيَّة وشِعْرها في نظْم أولئك العلماء الشُّعراء، في اعتساف المفردات، ولوْ لَمْ يكنْ لها أصل في اللُّغة، وإجراء القافية على إعراب واحد، مهما تباينتْ مواقع الإعراب، وكأنَّ القوم لَمْ يدركوا فرْق ما بين ذينك الضَّربين مِنَ الشِّعْر.

مَدَحَ الشَّيخُ عطيَّةُ المزينيّ القاضي الشَّيخَ عبدَ العزيز بن صالح المرشديّ المتوفَّى سنة ١٣٢٤هـ، فقال[١]:

بَدَأْتُ بِحَمْدِ الوَاحِدِ المُتَفَرِّدِي ... إِلَهِ الوَرَى حَقًّا مَلِيكِي وَسَيِّدِي

وَثَنَّيْتُ قَوْلِي بِالصَّلَاةِ مُسَلِّمًا ... عَلَى المُصْطَفَى خَيْرِ البَرِيَّةِ أَحْمَدِي

مَعَ الآلِ وَالأَصْحَابِ وَالتَّابِعِ الَّذِي ... عَلَى نَهْجِهِمْ مِنْ كُلِّ هَادٍ وَمُهْتَدِي

وَبَعْدُ فَإِنَّ العِلْمَ أَشْرَفُ حُلَّةٍ ... تَحَلَّى بِهَا المَرْءُ النَّجِيبُ المُسَدَّدِي

وَفِي فَضْلِهِ آيُ الكِتَابِ شَهِيرَةٌ ... وَنَصُّ كَلَامِ المُصْطَفَى خَيْرِ مَنْ هُدِي

فَبَادِرْ إِلَى تَطْلَابِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ... لِتَحْظَى بِهِ[٢]، بَادِرْ إِلَيْهِ لِتَسْعَدِي

وَإِنَّ عَلِيمَ النَّاسِ فِي أَرْضِ نَجْدِنَا ... لَشَيْخُ الهُدَى عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مَرْشَدِي

---

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ٢٠٣، ٥٩٦.

(٢) في الوثيقة: لتحضَى!

هُوَ الجَهْبَذُ النِّحْرِيرُ ذُو الفَضْلِ والتُّقَى وَخَتْمُ ذَوِي التَّحْقِيقِ شَيْخُ التَّعَبُّدِي
وَسِيعُ اطِّلَاعٍ ذُو فَضَائِلَ جَمَّةٍ فَلَازِمْ لَهُ لَا تَسْتَمِعْ قَوْلَ حُسَّدِي

ولَا تبحثْ في هذه الأبيات عنْ شِعْر، فليس فيها مِنَ الشِّعْر بقيَّة، ولكنْ تأمَّلْ كيف اعتسف النَّاظم القافية اعتسافًا حتَّى يبنيها بناءً واحدًا، ولا يهمُّه، ولعلَّه لمْ يَجُلْ في خاطره، فرْق ما بين حركتَي الرَّفْع والجَرّ، فالمهمّ عنده أن يظفر برويّ مكسور!

وحين توفِّي الشَّيخ عطيَّة بن سليمان المزينيّ سنة ١٣٣٠هـ، رثاه أحد محبِّيه بقصيدة جيِّدة المطلع، ولكنَّها لمْ تلبثْ أنْ أخلَّتْ بالنَّحْو[١]:

سَلِي ظَاهِرَ الأَشْوَاقِ مِنْ بَاطِنِ الوَجْدِ وَأَشْكُو دُمُوعَ العَيْنِ فِيكَ مِنَ الوَجْدِ
فَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الدُّمُوعَ صَبَابَةً تَسُفُّ بِأَجْفَانٍ وَجَارٍ عَلَى الخَدِّ
لَقَدْ ذَهَبَ الوِدُّ الصَّرِيحُ بِذَاهِبٍ وَزَادَ عَلَيْهِ القَلْبُ وَجْدًا عَلَى وَجْدِ
وَهَلْ نَافِعِي ذِكْرُ الأَحِبَّةِ بَعْدَهُ فَمَا كُلُّ مَفْقُودٍ يَكُونُ لَهُ فَقْدُ
وَمَا كَانَ صَبْرِي عَنْ أَخِي يجده وَكَانَ المُصَافِي والرَّفِيقَ المُسَدَّد
وَإِنِّي وَإِنْ قَالُوا مَضَى لِطَرِيقِهِ وَسُوِّي عَلَيْهِ اللَّبْنُ مِنْ مَوْضِعِ اللَّحْدِ
رَضِيتُ بِحُكْمِ اللهِ فِيكَ ضَرُورَةً إِلَهِ الوَرَى حَقًّا مَلِيكِي وَسَيِّدِي
عَطِيَّةُ أَعْطَاكَ الإِلَهُ كَرَامَةً وَبَوَّأَكَ المَنَّانُ فِي الخُلْدِ تَسْعَد

أمَّا الشَّيخ عوض بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى ما بعد سنة

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٢١٠.

١٣٠٤هـ = فنموذج ساطع على شِعْر اجتمع فيه اللَّحْن والرَّكاكة واختلال الوزن واعتساف القافية![1]

دَعْ عَنْكَ مِنْ ذِكْرَى سُعَادَ وَدَعْدَدِ ... وَمِنْ وَصْلِ هِنْدٍ مَا وِصَالُهُنَّ بِمُسْعِدِ
وَلَا تَذْكُرَنْ لِي غَيْرَ قَوْلٍ أَثِقْ بِهِ ... يُقَوَّى بِهِ دِينِي وَمِنْ خَيْرِ أَزْدَدِ
فَدَعْ عَنْكَ تَذْكَارَ الغَوَايَةِ والصِّبَا ... وَاتْرُكْ دَنِيَّاتِ الأُمُورِ وَسَدِّدِ
وَتَوَخَّ قَوْلَ الخَيْرِ وَاقْصِدْ فِعْلَهُ ... وَتَجَرَّدَنَّ لِنَهْجِ دِينِ مُحَمَّدِ

لكنْ.. مهلًا! فَلْنَتَذَكَّرْ كلماتٍ لصاحب زهر الخمائل، سقناهنَّ مِنْ قَبْلُ، يوجز فيهنَّ مبلغ الشَّيخ عوض بن محمَّد الحِجِّيّ مِنَ الشِّعْر والعربيَّة والعَرُوض، فالشَّيخ مقرئ للقرآن الكريم، ما في ذلك شَكّ، «وافر العقل، متوقِّد الذَّكاء... له خطّ حسن نظيف، وله اعتناء بجمْع الكتب ونقْل الفوائد، إلَّا أنَّه...»، و(إلَّا أنَّه)، هنا، مربط الفرس! «إلَّا أنَّه فيما يظهر مِنْ خطِّه ونقولاته وإنشاده البيت والبيتين والأربعة والخمسة، لا يُحْسن العربيَّة ولا العَرُوض»![2]

وأنا لا أطمئنّ كثيرًا لعباراتٍ يسوقهنَّ أصحاب كُتُب التَّراجم في هذا العالِم أوْ ذاك، فيهنَّ يبلغ أحدهما أوْ كلاهما مبلغًا عظيمًا في الشِّعْر والأدب. لا أطمئن لذلك ما لمْ يُقَدَّم بين يَدَيْ ترجمته ما يَجْلو تلك الشَّاعريَّة، ومؤلِّفو التَّراجم ينقل الخَلَف مِنَ السَّلَف، دون تحقيق ولا تدقيق، فإذا وقعْنا على نَظْم لا قيمة له في ميزان

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٥٦٠.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٩.

الشِّعْر وعِياره، أدركْنا أنَّ نقْد الشِّعْر ليس مِنْ صناعتهم، وأيقنَّا أنْ لا معرفة لديهم بمضايق الشِّعْر وقواعده.

نقرأ في ترجمة الشَّيخ عيسى المَلَاحِيّ أنَّه كان «يقرض الشِّعْر بمهارة»[١]، فإذا ما ظهرْنا على شِعْره ألفيناه ولا صلة له بالشِّعْر؛ بحوره وأعاريضه، وأغلب الظَّنّ أنَّه رأى علماء الدَّعوة يناضلون دون ما يعتقدونه بالشِّعْر، فرَكَّبَ كلماتٍ، ظنَّهنَّ شِعْرًا[٢]:

أَلَا قُلْ لِأَهْلِ العِلْمِ مِنْ سَاكِنِي الجَبَلْ ... أَجِيبُوا سُؤَالَ سائلٍ لَكُمْ سَأَلْ
فَمَا حُكْمُ أَهْلِ بَلْدَةٍ قَدْ أَسْلَمُوا ... ثُمَّ سَلَّمُوا الأَمْرَ بِمَا دَقَّ وَجَلّ
لِلْمُخَالِفِينَ دِينَ الرُّسْلِ جَمِيعِهِمْ ... وَمُلْتَزِمِي أَقْبَحِ الطُّرُقِ وَالمِلَلْ
فَاللهُ يَقْطَعُ مِنْهُمْ عَنَّا دَابِرَهُم ... وَكُلَّ حَبْلٍ مِنْهُمْ بِالخَيْرِ اتَّصَلْ
وَمَنْ أَعَانَهُمْ مِنْ قَسٍّ فَاتِنٍ ... مِمَّنْ غَوَى فَضْل ثُمَّ لَهُمْ أَضَلّ
وَمُقَاتِلٍ لِنَصْرِ رَايَاتٍ لَهُمْ ... وَمَنْ بِكُتْبِهِمْ قَدْ تَوَلَّى وَسَجَّلْ

إلى آخر تلك الكلمات الَّتي أدرك خصومه أنْ لا صلة لها بالشِّعْر، وإنْ هاج هذا الكلام غبارًا، وأشعل خُصُومةً سال فيها كثير مِنَ الحِبْر. وعندي أنَّ ما قِيل: إنَّ للشَّيخ عيسى المَلَاحِيّ **رسالة في عِلْم العَرُوض**[٣]، ربما كانتْ ورقاتٍ أثبتَ فيهنَّ الشَّيخ خلاصةً، يريد بها معرفة ميزان الشِّعْر، ولعلَّه ابتغَى مِنْ ورائها أن يَدْفع عنْ نَفْسه ما أَنْكَرَه عليه خصومه، مِنْ هذا الكلام المتخلِّف

(١) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٣٧.
(٢) العبوديّ، محمَّد بن ناصر. المرجع السَّابق، ٢١/ ١٧١ ـ ١٧٢.
(٣) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٢٩٤.

الرَّكيك الَّذي حَسِبَه شِعْرًا. وما قيل في العَرُوض يقال، كذلك، في **مختصر النَّحْو**[1]، يقوِّي ذلك أنَّ الشَّاعر سليمان بن سحمان قال في قصيدة رَدَّ بها كلامه[2]:

وَأَنْشَدَ شِعْرًا وَاهِيًا مُتَهَافِتًا ... عُيُوبًا كَسَاهَا حُلَّةَ الجَهْلِ وَالخَطَلْ
وَضَمَّنَهُ تِيهًا وَعُجْبًا، وَلَيْتَهُ ... نَحَا الصِّدْقَ وَاسْتَوْفَى القَرِيضَ بِمَا احْتَمَلْ
وَلَيْسَ بِنَظْمٍ مُسْتَقِيمٍ وَلَمْ يَكُنْ ... عَلَى أَبْحُرِ الشِّعْرِ الطَّوِيلِ وَلَا الرَّمَلْ
وَلَا وَزْنُهُ بِالمُسْتَقِيمِ، وَلَفْظُهُ ... رَكِيكٌ، وَلَا مَعْنَاهُ حَقًّا فَيُحْتَمَلْ

عالَجَ علماء حائل الشِّعْر وكابَدُوا في إنشائه. أخفق نفر منهم إخفاقًا عظيمًا، واستقام لآخرين ميزان الشِّعْر، حتَّى إذا بلغ به البيت والبيتين والثلاثة، شالتْ كِفَّته، فَحَلَّتْ به أدواءُ الشِّعْر كلُّها، وارتفعَ النَّظْم عند طائفة، وزاد حَسَنه على رديئه، فإذا بنا إزاء شِعْر استقام فيه الوزن، وصحَّتْ فيه اللُّغة، وإنْ كان لا يزال نَظْمًا سقيمًا جافيًا، ليس بينه وبين الخُطبة يلقيها الخطيب في المسجد أوِ النَّادي، إلَّا انتظامه في وزن، وانعقاده في قافية، ولنْ تظفر بجديد في أبياته المرصوفة يباين ما عليه شِعْر الدَّعوة في قلب نَجْد.

يقول الشَّيخ سالم البنيَّان[3]:

لَكَ الحَمْدُ يَا مَوْلَى الوَرَى خَيْرَ نَاصِرٍ ... كَثِيرًا كَمَا تَرْضَاهُ مِنْ كُلِّ شَاكِرِ

---

(١) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ٢/ ١٣٩.
(٢) العبوديّ، محمَّد بن ناصر. المرجع السَّابق، ٢١/ ١٧٢.
(٣) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٥٩١.

لَكَ الحَمْدُ أَنْ أَخْزَيْتَ كُلَّ مُعَانِدٍ ... خَبِيثِ الطَّوَايَا كَالطُّغَاةِ الأَصَاغِرِ
وَبَعْدُ فَقَدْ أَلْفَتْ عَلَيْنا بِشَارَةٌ ... لِأَهْلِ التُّقَى مِنْ كُلِّ نَدْبٍ مُهاجِرِ
أَفَادَتْ بِفَتْحِ الطَّائِفِ البَلَدِ الَّذِي ... حَوَى لِحُسَيْنٍ مِنْ صُنُوفِ الذَّخَائِرِ
فَسَارُوا عَلَى أَرْجَائِهِ وَحُصُونِهِ ... بِلَيْلٍ وَصَالُوا بِالظُّبَا والخَنَاجِرِ
وَدَارَتْ، بِحَمْدِ اللهِ، دَائِرَةُ البِلَى ... عَلَيْهِمْ، وَقَدْ بَاءُوا بِصَفْقَةِ خَاسِرِ
فَمَا بَيْنَ مَقْتُولٍ تَرَاهُ مُجَنْدَلًا ... وَمَا بَيْنَ مَأْسُورٍ بِأَيْدِي الأَطَاهِرِ
فَأَصْبَحَ فَيْئًا لِلْهُدَاةِ وَمَغْنَمًا ... وَطَهَّرَهُ الرَّحْمَنُ مِنْ كُلِّ غَادِرِ
وَقَدْ أَمَّنُوا أَهْلَ البِلَادِ جَمِيعَهُمْ ... وَقَدْ أَخَذُوا مِنْهُمْ جَمِيعَ الذَّخَائِرِ
وَقَدْ هَدَّمُوا فَوْقَ ابْنِ عَبَاس قُبَّةً ... يُنَادُونَهُ فِيهَا لِكَشْفِ الفَوَاقِرِ

والحقّ أنَّ ما سقط إلينا مِنْ شِعْر علماء حائل ليس على نهج واحد، فبينما نقرأ قصيدةً، أوْ أبياتًا محكمة النَّسْج، متينة اللُّغة، إذا بنا نَقَع في القصيدة نَفْسها على ما يَزْوَرُّ له وجْه اللُّغة، ولا يرضاه النَّحْو، ويأباه العَرُوض، وكأنَّ في ذلك الشِّعْر أثرًا مِنْ مكابدة العُدُول عنِ العامِّيَّة إلى الفصحى، أوْ كأنَّ أولئك العلماء قدِ اضطُرُّوا إلى الشِّعْر اضطرارًا، فلولا الدِّفاع عنِ الدَّعوة السَّلَفيَّة وأئمَّتها، ولولا مناظرة الخصوم، ما رَكِبَ أولئك العلماء هذا المركب الصَّعب، وبضاعتهم مِنَ اللُّغة والأدب قليلة، فَهُمْ ما بين مشتغل بالفقه، أوْ ذَابٍّ عنِ العقيدة، أوْ مدرِّس للدِّين، أمَّا الأدب وأمَّا الشِّعْر، فأغلب الظَّنّ أنَّ علماء حائل إنَّما اقتفَوْا أثر شيوخ الدَّعوة في قلب نَجْد، وساروا في رِكابهم، في الفقه والدَّعوة

والمناظَرة والشِّعْر، ولا أَحسبُني عَدَوْتُ الحقيقة إذا جعلْتُ شِعْر علماء الدَّعوة في الرِّياض ونواحي العارض، هو كلّ ما يعرفه شعراء حائل مِنَ العلماء، فهؤلاء العلماء لمْ يفرغوا للشِّعْر، ولمْ يَنقطعوا إليه، ولمْ تَشْغَلْهم شياطينه ولا بواعثه عمَّا سواه، لكنَّهم رَكِبُوا الشِّعْر اضطرارًا، وأكبرُ الظَّنّ أنَّهم لمْ يعْرفوا ما تقلَّبَ فيه الشِّعْر العربيّ في مصر والشَّام، بَلْهَ العراق الَّذي بينه وبين حائل وشائج لا تَبْلَى.

على أنَّ هذا الأمر لا يخصّ شعراء الجبل وحْدَهم، بلْ يشمل عصريِّيهم مِنْ شعراء البلدات النَّجْديَّة كلِّها، ويَصْدُق، في هؤلاء وأولئك، قول محمَّد بن سعد بن حسين:

> إنَّ أولئك العلماء-الشُّعراء لمْ يُقَدَّرْ لهم الاطِّلاع على تلكم النَّهضة الحديثة، ووسائلها التَّثقيفيَّة المتنوِّعة ـ كالمدارس والمطابع والصُّحُف والمذياع وغيرها ـ مِمَّا له بعيد الأثر في تكوين العقليَّات المتجدِّدة، ذات النِّتاج الفكريّ المنطبع بطابع العصر الحديث، الملائم للذَّوق النَّاشئ في حِضْن المربِّيَة الجديدة: حضارة القرن الرَّابع عشر «القرن العشرين»[1]

أوَّل ديوان مطبوع لشاعرٍ مِنْ نِجْد

وأكثر مِنْ ذلك في شِعْر الجبل، هذا الَّذي سكتتْ عنْه كُتُب الأدب الحديث في نَجْد، أنَّ أوَّل ديوان شِعْر عَرَفَ الطَّريق إلى

---

(١) ابن حسين، محمَّد بن سعد. **الأدب الحديث في نَجْد** (الرِّياض: جامعة الملك سُعُود، كرسيّ الأدب السُّعُوديّ، ١٤٣٤هـ=٢٠١٣م)، ص ٣١.

المطبعة، كان لشاعر مِنْ حائل. أمَّا الدِّيوان فاسْمه **صدى الحرب**، وأمَّا الشَّاعر فحسن بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى سنة ١٣٤٣هـ، وأمَّا المطبعة فمطبعة اللِّواء بمصر، (سنة ١٣٢٠هـ=١٩٠٢م)، وأمَّا الباعث على النَّشْر فمعركة «الصَّرِيف» بين عبد العزيز بن متعب ابن رشيد ومبارك الصَّباح، (سنة ١٣١٨هـ=١٩٠١م).

وأنا لا يعنيني تتبُّع أخبار المعركة، فموضع ذلك كُتُب التَّاريخ[١]، وإنَّما الَّذي يعنيني هو هذا الدِّيوان الَّذي سَكَتَتْ عنه كُتُب الأدب الحديث في نَجْد وكُتُب الفهارس. وأغلب الظَّنّ أنَّها لمْ تَعْرِفْه، ولوْ عرفتْه لاحتفلتْ له احتفالًا، إنْ لمْ يَكُنْ للشِّعْر الَّذي انطوى عليه، فلأنَّه يؤرِّخ لأوَّل ديوان مطبوع في نَجْد، وهذا يكفي!

وديوان **صدى الحرب** يقع في ستَّ عشرةَ صفحةً، ثمانٍ منها مقدِّمةٌ نَثَرَ فيها حسن الحِجِّيّ شيئًا مِنْ تاريخ معركة الصَّريف وأحداثها، والثَّماني الباقية مِنَ الدِّيوان، انطوتْ على خمسةٍ ومئة بيت، مِنْ بحر الكامل، ورويّ النُّون.

ويغلب على الظَّنّ أنَّ حسن بن محمَّد الحِجِّيّ كان مِنْ طلبة العِلْم، يدلُّنا على ذلك أنَّ عليّ بن محمَّد الهنديّ، صاحب **زهر**

---

(١) يُنْظَر في حوادث معركة الصَّريف وتاريخها: الزِّرِكْلِيّ، خير الدِّين. **شِبْه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، ١/١١٩ ـ ١٢١؛ الظَّاهريّ، أبو عبد الرَّحمن ابن عقيل. **مسائل مِنْ تاريخ الجزيرة العربيَّة**، ص ص ١٢٠ ـ ١٩٥؛ الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. **كون الصَّريف، دراسة تاريخيَّة شاملة لوقائع معركة الصَّريف**.

الخمائل، أورد اسْمه مجرَّدًا مِنْ لقب «شيْخ»، ونعْرف مِنْ ترجمته أنَّه «قرأ القرآن والتَّجويد على أخيه عوض بن محمَّد الحِجِّيّ»، وأنَّه «كان مولعًا بالكُتُب وحِفْظ الأدبيَّات والحِكَم والوصايا حسن القراءة جِدًّا»، وأنَّه «خدم عند آل رشيد، وربَّما بعثوه إلى المنتفق وإلى ابن إبراهيم راعي الزُّبير»[1]. غير أنَّ ما ساقه الهنديّ موجَزًا، نقرأه عند سواه مفصَّلًا بعض تفصيل، وفيه أنَّ عبد العزيز بن متعب بن رشيد بعثه إلى البصرة «لتصريف بعض شؤون إمارة حائل فيها، فأقام بها سبع سنين»[2]، و«أنَّه كان وكيل ابن رشيد في البصرة»[3]. أمَّا شِعْره، فبينما لمْ يَعْرِضْ له صاحب زهر **الخمائل** مِنْ قريب ولا مِنْ بعيد، قال عنه أحمد الفهد العريفيّ: «له شِعْر جيِّد»[4]، بلْ إنَّ العريفيّ هو الَّذي قرأتُ لديه خبر ديوانه **صدى الحرب**، وظَهَرَ لديه أنَّ هذا الدِّيوان «أوَّل ديوان مطبوع في المنطقة كلِّها»[5]، وأطنب حسَّان الرُّديعان في وصْف شِعْره فقال: «كان رحمه الله شاعرًا، ولشِعْره قوَّةٌ وجزالةٌ»[6].

ولا ريب عندي أنَّ ديوان **صدى الحرب** ـ وإنْ كان أوَّل ديوان مطبوع لشاعر مِنْ نَجْد = مِنْ ساقط النَّظْم ورديئه، وأنا لا أتحدَّث، هنا، عنْ موضوعه، فمحلّ ذلك كُتُب التَّاريخ، ولكنَّني أتحدَّث عنِ الوشيجة الَّتي تَصِل هذا الدِّيوان بالشِّعْر واللُّغة والنَّحْو

---

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٦.
(٢) العريفيّ، أحمد الفهد. **علماء لُبْدة**، ص ٢٧.
(٣) العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ص ٢٧.
(٤) العريفيّ، أحمد الفهد. المرجع السَّابق، ص ٢٧.
(٥) العريفيّ، أحمد الفهد. **قضاة حائل**، ص ٣٥؛ **علماء لُبْدة**، ص ٢٨.
(٦) الرُّديعان، حسَّان. **نبع الكرم والشَّمائل**، ص ٢٦٢.

والعَرُوض. أمَّا موضوع الشِّعْر فهو الدِّعاية السِّياسيَّة، فالشَّاعر ينتصر لأميره عبد العزيز بن متعب بن رشيد، وربَّما زَيَّنَ الأمير لشاعره نَظْم القصيدة، وعساه أغراهُ بطبْع قصيدته في مصر[١]، فخرجتْ في هذا الدِّيوان، وشاء له القَدَر أن يكون أوَّل ديوان مطبوع في نَجْد، مهما كان مِنَ الشِّعْر السَّقيم الفاسد!

والشَّاعر قَدَّرَ أنَّ قصيدته مِنْ بحر الكامل، وأنَّ رويَّها النُّون المكسورة، والقارئ العارف بالشِّعْر يظهر على ذلك مِنْ مستهلّ القصيدة، وبما عَرَفَه في الشِّعْر والعَرُوض والنَّحْو

حَمْدًا لِمَوْلَانا عَظِيمِ الشَّانِ رَبِّ الـبَـرِيَّـةِ أَوَّلًا وَالـثَّـانِـي
حَمْدًا كَثِيرًا مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا بِـالـحَـقِّ وَالإِيـمَـانِ وَالإِذْعَـانِ
فَلَهُ الثَّنَا سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ وَهْوَ الحَكِيمُ مُدَبِّرُ الأَكْوانِ

لكنَّنا نقرأ في البيت الرَّابع مِنَ القصيدة هذا البيت الَّذي لا أعرف له موقعًا مِنَ الشِّعْر ولا العَروض ولا النَّحو!

وَهْوَ المُيَسِّرُ والمُنَفِّذُ لِلْفَضْلِ فِي حِكْمَةٍ حَارَتْ بِهَا الأَذْهَانُ

ثُمَّ يرتدّ في البيت الخامس إلى صحيح الوزن وسليم اللُّغة فيقول:

---

(١) مَرَّ بنا أنَّ مطبعة اللِّواء بالقاهرة هي الَّتي طبعتِ الدِّيوان، ومِنَ المهمّ أنْ نعرف أنَّ هذه المطبعة وأنَّ المجلَّة الَّتي تَحْمل الاسْم نَفْسه، يؤول أمرهما إلى الحزب الوطنيّ الَّذي أنشأه الزَّعيم المصريّ مصطفى كامل، وأنَّ الحزب وزعيمه مواليان للسِّياسة العثمانيَّة، وأنَّ العثمانيِّين نصروا ابن رشيد وأيَّدوه في تلك المعركة. الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ. المرجع السَّابق، ص ص ٥٥٤ ـ ٥٥٦.

مَـا لِـلْـعِـبَـادِ بِـأَمْـرِهِ وَبِـقَـهْـرِهِ عِـلْـمٌ وَلَـيْـسَ لَـهُـمْ بِـذَاكَ يَـدَانِ

ولا يلبث في البيت السَّادس أنْ يقصم رقبة العَروض، فيقول:

فَهْوَ العَلِيمُ بِكُلِّ مَا يُقْضَى غَدًا وَهْو الخَبِيرُ بِمَا يَأْتِي بِهِ المَلَوَانِ

وفي البيت السَّابع:

أَمَرَ الخَلَائِقَ فِي أَوَامِرَ تُرْضَى[1] مَنْ حَادَ عَنْهَا جَاءَ بِالخُسْرَانِ

والحقّ أنَّ حسن بن محمَّد الحِجِّيّ لا صلة له بالشِّعْر، فالرَّجُل بضاعته مِنَ الشِّعْر واللُّغة والنَّحْو قليلة، وهو، مع هذا القليل، له جراءة على النَّشْر والطَّبْع، ويُخَيَّل إليَّ أنَّه متأثِّر بالشِّعْر العامِّي «النَّبَطِيّ»، ففي هذا الضَّرب مِنَ الشِّعْر يبني الشَّاعر قصيدته على قافية ورويّ، ثُمَّ يُجْري عليهما الإعراب كيف يشاء، رفعًا إنْ شاء الرَّفْع، ونصبًا وخفضًا، إنْ شاء النَّصب أوِ الخفْض، فوقع في وَهْم صاحب **صدى الحرب** أنَّ ذلك ممكن في الشِّعْر الفصيح!

كَالشَّيْخِ عَبْدِ اللهِ مَنْ حَفِظَ الوَفَا فَرَعَى الأَمَانَةَ واتَّقَى الرَّحْمَن

زَاكِي العَنَاصِرِ شَيْخُنا ابْنُ شُيُوخِنَا لِلّهِ دَرُّكَ عَالِمًا رَبَّانِي

تِلْكَ الخِصَالُ حَمِيدةٌ فِي حَقِّهِمْ وَمَحَاسِنٌ يَرْضَى بِهَا الرَّحْمَن

وأنا لا أعرف كيف تُقْرَأ هذه الأبيات؟ ولكنِ الَّذي أعرفه أنَّ هذا الدِّيوان، على افتقاره إلى الشِّعْر، بلْ إلى النَّظْم، أصاب اللُّغة والنَّحْو وميزان الشِّعْر في مقتل، وأَحْسَبُ أنَّ في ما ذكرتُه كفايةً، وإلَّا ففيه مِنَ العيوب ما لا يستطيع القارئ عليه صبرًا!

---

(١) تُرْتَضَى.

مائيَّة الشِّعْر

ومهما أفسد علينا ذلك النَّظْمُ الواهي الذَّوقَ والجَمَالَ، فإنَّنا نقرأ في شِعْر علماء حائل قصائد تَحْنُو على الذَّوق وتُشْفِق على الجَمَال، ويصعب أنْ نَعُدَّها شِعْر علماء، وإنْ لَمْ يَخْلُ أثره مطلقًا، فيها ما في الشِّعْر مِنْ مائيَّة، ويختبئ خلف كلماتها رُوحٌ آسِر، هو لا شكَّ ذلك الَّذي نَدْعوه «شِعْرًا».

ويغلب على الظَّنّ أنَّ صالحًا البنيَّان وسليمان المزينيّ وحمودًا الشَّغدليّ = لو انقطعوا للشِّعْر، لجاءنا مِنْهم شِعْر يرضي الذَّوق والجَمَال، ولكنَّ ما رُكِزَ في طبيعتهم مِنْ قوَّة على الشِّعْر، إنَّما استُنْفِدَ معظمه في شِعْر الدَّعوة والذَّود عنْ حِياضها، ومنازلة خصومها، ونَظْم المتون الفقهيَّة، ومع ذلك استكان أثر مِنْ ذلك الرُّوح خَلْفَ كلمات ذلك الشِّعْر الَّذي قصدوا به العِلْم الدِّينيّ ورجاله.

ربَّما فاتنا في الشِّعْر الَّذي قيل في الدَّعوة ومنازلة أعدائها، ما يطلبه قارئ الشِّعْر، وهو جمال التَّصوير، وفتنة الاستعارة، لكنَّنا، مع إقرارنا بذلك، نلمس في نظمهم شيئًا مِنْ قوَّةٍ، وآثارًا مِنْ متانةٍ افتقر إليها شِعْر العصور الخوالي، وهذه القوَّة وتلك المتانة، استمدَّهما شعراء حائل مِن اقتفائهم أثر شعراء الدَّعوة في قلب نَجْد، دون غيرهم مِنَ الشُّعراء، فهم أساتذتهم في الدِّين، كما هُمْ أساتذتهم في الشِّعْر والكتابة والتَّأليف، ولا شكَّ عندي في أنَّ وفود شاعر الدَّعوة النَّجديَّة الكبير الشَّيخ سليمان بن سحمان على حائل، لَمَّا استولَى محمَّد بن عبد الله ابن رشيد على كُلّ نَجْدٍ،

أحيا مَوَات اللُّغة وزيَّن الشِّعْر في قلوب علماء الجبل وطلبة العِلْم فيه، ونقرأ في ترجمة الشَّيخ صالح السَّالم البنيَّان أنَّه لازم الشَّيخ سليمان بن سحمان، وقرأ عليه، وتأثَّر بِنَثْره ونَظْمه[1]. وابنُ سحمان، مهما قيل في شِعْره، قويّ اللُّغة مُحْكمها، له قدرة على النَّظْم، كيف يشاء، وبخاصَّةٍ حين يدْفع عنِ الدَّعوة السَّلَفِيَّة التُّهَم الَّتي ألصقها بها خصومها.

وتأثُّر صالح بن سالم البنيَّان بسليمان بن سحمان وتخرُّجه به، لمْ يَمْنَعْ عنْ شِعْره أدواءَ اللَّحن، وعيوبَ الوزن والقافية، ولِينَ اللُّغة، ولمْ تُواتِهِ قدرته الشِّعْريَّة على أن يعالج شؤون الدَّعوة والمناظرة، فَيَسْلَس له الشِّعْر ويَنقاد، كما سَلِسَ لشيخه ابن سحمان وانقاد، فرشح جبينه، واضطربتِ الكلمات بين يديه، في غير قصيدة مِنْ قصائد ديوانه، واعتسف اللُّغة اعتسافًا حتَّى تَستقيد لمشيئته هو وهواه، وأَذْكَرَني ما فعله في حقّ اللُّغة قولَ مارون عبُّود في شِعْر المطران جرمانوس فرحات: «فالمطران يُسكِّن ويُحَرِّك ويُخَفِّف ويُشَدِّد، ويَقْصُر ويَمُدُّ، ويُشْبع ويَخْتلس ولا يُبالي»[2]!

والشَّيخ صالح السَّالم البنيَّان مستمسك بالدَّعوة النَّجْديَّة، لا يرى الدِّين ولا الاستقامة في سوى نَجْد، ولوْ كانتْ مكَّة المكرَّمة، والمدينة المنوَّرة، والعراق، ومصر، والشَّام! وبلغ به

(١) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٢١٤.

(٢) عبُّود، مارون. **مؤلَّفات مارون عبُّود، رُوَّاد النَّهضة الحديثة** (بيروت: دار مارون عبُّود، د.ت)، ٢/ ٣٩.

هيامه بتلك الدَّعوة أنْ أفرد لها منظومة في اثنين وثمانين بيتًا، افتتحها بمقدِّمة غزليَّة، قال فيها[١]:

حَوْرَاءُ زَارَتْنِي فَطَالَ تَجَلُّدِي ... حَذَرًا عَلَيْهَا مِنْ عُيُونِ الحُسَّدِ
خِلْتُ الهِلَالَ جَبِينَهَا قَدْ لَاحَ مِنْ ... بَيْنِ السَّحَائِبِ، ذَات فَرْعٍ أَسْوَدِ
نَظَرَتْ بِطَرْفٍ فَاتِرٍ أَهْدَابُهُ ... تُزْرِي السِّهَامَ وَلَيْسَ ذَاكَ بِأَرْمَدِ
وَالثَّغْرُ ذُوْ ظَلْمٍ قَدِ ابْتَسَمَتْ لَهُ ... فَرَضًا بِهِ يَحْكِي السُّلَافَ بِعَسْجَدِ
وَتُجِيلُ مِسْوَاكًا عَلَى رَتْلٍ بَدَا ... فَسَأَلْتُهَا فِي صُورَةِ المُتَعَبِّدِ
مِمَّنْ؟ فَقَالَتْ: إِنَّنِي مِنْ بَلْدَةٍ ... مِنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مِنْ مَهَاجَرِ أَحْمَدِ
مِنْ مَعْشَرٍ فِيهَا بِفَاسِدِ رَأْيِهِمْ ... قَدْ أَحْدَثُوا فِي الدِّينِ مَا لَمْ يُعْهَدِ
مِنْ رَفْعِهِمْ فَوْقَ القُبُورِ مَشَاهِدًا ... وَصَلَاتُهُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْ مَسْجِدِ

وتمضي القصيدة على هذا النَّحْو، والفتاة الَّتي تَخَيَّلها الشَّاعر، تُعَدِّد ما تأباه عقيدتها، حتَّى إذا استيأستْ مِنْ أيّ أثر للدِّين وللإيمان في المدينة المنوَّرة ومكَّة المكرَّمة والعراق ومصر والشَّام! إذا برجُلٍ يرشدها إلى نَجْدٍ، فتشدّ الرِّحال إليها، فتفوز فوزًا عظيمًا[٢]:

فَخَرَجْتُ أَطْلُبُ رِفْقَةً قَدْ آثَرُوا ... نَصَّ الكِتَابِ وَنَصَّ شَرْعِ مُحَمَّدِ
فَقَدِمْتُ مَكَّةَ والعِرَاقَ وَمِصْرَ والشَّـ ... ـامَ المُبَارَكَ رَغْبَةً فِي المُرْشِدِ

---

(١) الرُّديعان، حسَّان. فضيلة الشَّيخ صالح بن سالم آل بنيَّان، حياته، آثاره، جهوده العِلْميَّة، تحقيق ديوانه، ص ص ١٤٦ ـ ١٤٧، وسوف نشير إلى الكتاب، بعد ذلك، بعبارة «ديوان البنيَّان».

(٢) ديوان البنيَّان، ص ١٤٧.

فَأَتَاحَ لِي رَبُّ العِبَادِ بِفَضْلِهِ رَجُلًا يَرَى فَرْضًا هِدَايَةَ مُهْتَدِ
قَالَ: اقْصِدِي نَجْدًا، بِهَا أَهْلٌ لَهَا لَمْ تَسْمَعِي مِنْهُمْ نِدًّا: يَا سَيِّدِي
فَقَدِمْتُهَا، فَارْتَحْتُ فِي عَرَصَاتِهَا جَذْلَانَةً مِنْ بَعْدِ قَطْعِ الفَرْقَدِ
فِيهَا أُنَاسٌ كَانَ مِنْ دَيْدَانِهِمْ حُبُّ الرَّسُولِ وحُبُّ كُلِّ مُوَحِّدِ
لَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا إِنَّمَا فُطِرُوا عَلَى التَّوْحِيدِ مُذْ رَضَعُوا الثَّدِي

وبينما سارتِ القصيدة مستويةَ اللُّغة والوزن، عَيِيَ الشَّاعر، واختلط عليه النَّحْو والعَرُوض والقافية، وما إن يَبدأ حتَّى يَقْصُر عنِ الغاية، واستعصَى عليه الشِّعْر، ولمْ تُواتِهِ القريحة، فهوتْ أبياتها في قرار سحيق، فيُقْوِي، ويَثْلَم وجه النَّحو ويَمُدّ ويَقْصُر كيف يشاء!

فِيهَا أُنَاسٌ كَانَ مِنْ دَيْدَانِهِمْ حُبُّ الرَّسُولِ وحُبُّ كُلِّ مُوَحِّدِ[1]
وَيَرَوْنَ أَنَّ مِنَ الضَّلَالَةِ مَنْ يَزُرْ قَبْرًا لِيَسْأَلَهُ الشَّفَاعَةَ فِي غَدِ[2]
أَوْ جَلْبَ مَنْفَعَةٍ وَدَفْعَ مَضَرَّةٍ هَذَا لَعَمْرِي فِي الجَحِيمِ مُخَلَّدُ[3]

وأنَّى جُلْتَ في شِعْره فَثَمَّ لحْن وإقواء واشتقاق مرتجَل ولِين لُغة

مُحَمَّدٍ المَبْعُوثِ لِلنَّاسِ رَحْمَةً نَذَارَتُهُ مَقْرُونَةٌ بِالبَشَائِرِ[4]
وَأَخْتُمُ نَظْمِي بِالصَّلَاةِ مُسَلِّمًا مَعَ الحَمْدِ مَا مَاضَتْ بُرُوقُ المَوَاطِرِ[5]

(١) ديوان البنيَّان، ص ١٤٧.
(٢) ديوان البنيَّان، ص ١٤٧.
(٣) ديوان البنيَّان، ص ١٤٨.
(٤) ديوان البنيَّان، ص ١٥٢.
(٥) ديوان البنيَّان، ص ١٥٦.

وَلَازِمْ وَلَا تُلْهِيكَ دُنْيَا دَنِيَّةٌ وَحُبُّ طَرِيفِ المَالِ مِنْهَا وَتَالِدِ[١]
إِلَيْكَ تَوَسَّلْنَا بِأَوْصَافِكَ العُلَا وَأَسْمَائِكَ الحُسْنَاءِ دَعْوَةَ جَاهِدِ[٢]

ضَعْفُ الثَّقافة

وضَعْف الثَّقافة الأدبيَّة واللُّغويَّة ليس مِمَّا اختُصَّ به شعراء حائل أوِ امتازوا به، في ذلك العهد، وإنَّما يَشْرَكُهم في هذا البلاء شعراء آخرون، في غير ناحية مِنْ بلاد العرب[٣]، كان قدْ مَسَّها هذا البلاء، وعَمَّ فيها وطَمَّ! ودونك تاريخ الجبرتيّ، فقدْ حَفَلَ بشعْر وافر، ظَهَرَ على كثير منه لِين في اللُّغة، وركاكة في الأسلوب، وضَعْف في الثَّقافة، وما لنا نذهب بعيدًا، فهذه بيئة العراق، وهي بيئة شاعرة، عَرَفَتْ، قُبَيْلَ أن يَنبري علماء الجبل يَنْظِمون الشِّعْر، في غير شاعر مِنْ شعراء الرَّافدَيْن ضَعْفًا في الثَّقافة، ولِينًا في اللُّغة، واستوى لدى نفر مِنَ الشُّعراء الكلام والشِّعْر، فلا تُمَيِّز بين أحدهما إلَّا بانتظام الشِّعْر في أوزان،

---

(١) ديوان البنيَّان، ص ١٥٨.

(٢) ديوان البنيَّان، ص ١٦٠.

(٣) يُنْظَر: العقَّاد، عبَّاس محمود. **شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي** (القاهرة: نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، د.ت)، ص ص ٧ ـ ١٠؛ ضيف، شوقيّ. **الأدب العربيّ المعاصر في مصر** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٤م)، ص ص ٣٨ ـ ٣٩؛ الحسينيّ، الشَّريف محمَّد بن راضي. **الشِّعْر في المدينة في القرن الثَّاني عشر الهجريّ** (المدينة المنوَّرة، نادي المدينة المنوَّرة الأدبيّ، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م)، ص ص ٣٦١ ـ ٣٦٨؛ بافقيه، حسين محمَّد. **ذاكرة الرِّواق وحُلْم المطبعة، أصول الثَّقافة الحديثة في مكَّة المكرَّمة ١١٠١ ـ ١٣٨٤هـ=١٦٨٩ ـ ١٩٦٤م** (بيروت: دار المؤلِّف، ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م)، ص ص ٢٦١ ـ ٢٨٤.

وانعقاده في قوافٍ، وقدْ عُرِفَ عنِ الشَّاعر السَّيِّد جعفر الحِلِّيّ (١٢٧٧ ـ ١٣١٥هـ = ١٨٦١ ـ ١٨٩٧م)، وهو مِنْ أشهر شعراء ذلك العهد، أنَّه لمْ يَحْفَظْ مِنْ شِعْر العرب إلَّا ما مقداره مئة بيت، وأنَّه قَلَّما يُعاوِد النَّظر في كُتُب الأدب واللُّغة والشِّعْر[1]، أمَّا الشَّاعر الشَّيخ حماديّ الكواز، فقدِ اشتُهِرَ عنه أنَّه «كان أُمِّيًّا لمْ يقرأْ ولمْ يكتبْ، وكان لا يعرف نحْوًا ولا صَرْفًا ولا لُغةً ولا عَرُوضًا، ومع ذلك فالرَّجُل يَنْظِم الشِّعْر، وحين يُجَادَل في مسألة لغويَّة أوْ صرفيَّة، كان يقول لمجادله: (راجعوا كُتُبكم فالقول لي)»[2].

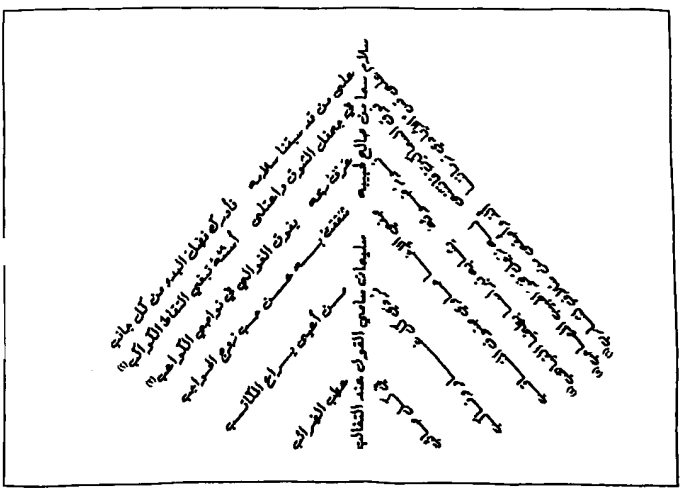

مُشَجَّرة لصالح السَّالم البنيَّان

(١) علوان، عليّ عبَّاس. **تطوُّر الشِّعْر العربيّ الحديث في العراق، اتِّجاهات الرُّؤيا وجماليَّات النَّسيج** (بغداد: منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٥م)، ص ٥٤.

(٢) علوان، عليّ عبَّاس. المرجع السَّابق، ص ٥٥.

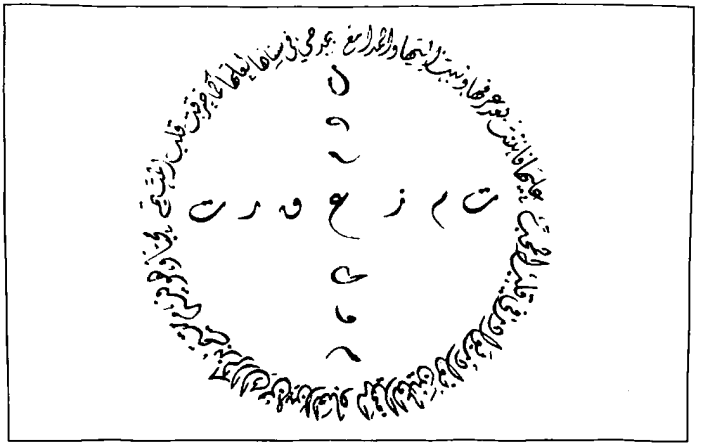

شِعْر دائري لسليمان بن عطيّة المزينيّ

والحقّ أنَّ شِعْر علماء حائل، على ما فيه مِنْ جهامة النَّظْم، لمْ يَهْوِ كما هَوَى في بيئات أخرَى، هي أشدّ اتِّصالًا بالحضارة والمدنيَّة مِنْ حائل وعامَّة نَجْد، ولمْ يَبْتَذِلِ الشُّعراء مُهَجهم ليُصِيبوا نعيمًا، فهم قريبو عهد بالبداوة، ومُدَّة ممارستهم للشِّعْر الفصيح لمْ تتخَطَّ، بَعْدُ، زمن الطُّفُوليَّة، ولمْ يَتَّخذوا النَّظْم حِرْفةً ومَتْجَرًا، فأنشأوا شِعْرًا التمسوا فيه القوَّة والفصاحة، وإنْ لمْ تساعدْهم القوَّة والفصاحة في كلّ حين.

إذنْ، تَكَلَّفَ شعراء حائل الجِدّ فيما يَنْظِمون ويُنشئون، ولا نكاد نظفر بقصيدة إلَّا وعليها آثار مِنْ تَكَلُّف الجِدّ، وكأنَّما كان سبيلهم أن يُجاهدوا بأنفسهم وألسنتهم دون عقيدتهم، حتَّى إذا استراحوا مِنْ حُزُونة النَّثْر إلى سُهُولة النَّظْم، أنشأوا يَنْظِمون شِعْرًا متجهِّمًا، كُلُّه، إلَّا قليلًا، دفاع عنْ عقيدة، وتَرَبُّصٌ بخُصوم،

وأُولِعُوا بالمطوَّلات، وعساهم وجدوا فيها شَبَهًا بالخُطبة إلَّا أنَّها موزونة مقفَّاة.

لَمْ تَسْتَهْوِ شعراء حائل ـ بلْ شعراء نَجْد كلِّها[1] ـ تلك الألعاب الشِّعْريَّة الَّتي استهوَتْ شعراء الأقاليم العربيَّة الأخرى، إلَّا شيئًا قليلًا، وكان هذا القليل النَّادر أَمَارةً على تَكَلُّفهم الجِدّ في نَظْمهم، ومجافاتهم ضُرُوب العَبَث الَّتي تَفَنَّنَ فيها شعراء القرون المتأخِّرة، وكأنَّما كان على الشَّاعر أن تَظْهَر براعته كلَّما شَطَّرَ وخَمَّسَ وشَجَّرَ وعارَضَ وأَلْغَزَ، وما يُدْرينا فلعلَّ شعراء الجبل آنَسُوا في هذه الألوان مِنَ الشِّعْر ما يستريحون فيه مِنْ قساوة الجِدّ إلى لِين العَبَث[2].

ردود وسِجَال

نَظَمَ الشُّعراء، مِنْ علماء حائل، في غير لون مِنْ ألوان الشِّعْر؛ في المديح، والرِّثاء، والهجاء، هجاء خصوم الدَّعوة، وسِجَال الأقران، فللشَّيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور، المتوفَّى سنة ١٢٨٢هـ، منظومة دعاها **الرَّدّ الدَّامغ على مَنِ اعتقد أنَّ شيخ الإسلام زائغ**، ردَّ فيها على الشَّيخ عثمان بن سند البصريّ

---

(١) طه حسين. **ألوان** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨م)، ص ٤٦؛ الحامد، عبد الله. المرجع السَّابق، ص ١٥٠.

(٢) تُطَالَع نماذجها في: السُّويداء، عبد الرَّحمن بن زيد. **الثَّقافة والتَّعليم في منطقة حائل قبل المدارس النِّظاميَّة**، ص ص ١٦٦ ـ ١٧١؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠، ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ٣٢٠، ٤٢٨ ـ ٤٢٩، ٦٠٠، ٦٠١.

النَّجديّ، لَمَّا تَعَرَّض للشَّيخين ابن تيمية ومحمَّد بن عبد الوهَّاب[١]، وردَّ الشَّيخ صالح بن سالم البنيَّان على السَّيِّد أحمد زينيّ دحلان، مفتي الشَّافعيَّة بمكَّة المكرَّمة، والعالم العراقيّ الشَّيخ داود بن جرجيس ومَنْ رَضِيَ بمذهبهما مِنْ أهل نَجْد، بمنظومة دعاها **الشِّهَاب المرمي في نَحْر مَنْ سُمِّي**، في خمسةٍ ومئةِ بيت[٢]، وله منظومة أخرى في الرَّدّ على الشَّيخين إبراهيم بن جاسر وعبد الله ابن عمرو، في ثمانية وثمانين ومئة بيت[٣]، ومَرَّ بنا شيْء مِنْ أخبار الملاحاة الَّتي استعر أوارها بين الشَّيخ عيسى المَلَاحِيّ والشَّيخ صالح السَّالم البنيَّان ومَنْ شايعهما، فثار غبار ونُظِمَ كثير مِنَ الشِّعْر، معظمه مِنْ ساقط النَّظْم ورديئه[٤]، وللشَّيخ حسن بن محمَّد الحِجِّيّ المتوفَّى سنة ١٣٤٣هـ، قصيدة يدفع فيها عنِ الدَّعوة النَّجديَّة[٥].

ولعلَّك لوِ استبهم عليك اسْم شاعر مِنْ هؤلاء العلماء، أوْ خلطتَ شِعْره بشِعْر غيره مِنْ علماء الدَّعوة، في الرِّياض ونواحي

---

(١) ابن منصور، عثمان بن عبد العزيز. المرجع السَّابق، مقدِّمة التَّحقيق، ١/١١٦ ـ ١١٧؛ الرُّديعان، حسَّان. **منبع الكرم والشَّمائل**، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٢٢٤.

(٣) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٢٢٤، وتُنْظَر القصيدة ومقدِّمتها النَّثريَّة الطَّويلة، في: العبوديّ، محمَّد بن ناصر. **معجم أسر بريدة**، ٣/٦٩ ـ ٨٠.

(٤) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/١٧٤ ـ ١٧٧، ٢/١٣٨ ـ ١٣٩؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ٧٥ ـ ٩٠؛ العبوديّ، محمَّد بن ناصر. المرجع السَّابق، ٢١/ ١٧٠ ـ ١٨١.

(٥) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤، ٦٤٠.

العارض، أوْ مَنْ تعصَّبَ لها في الأحساء وعسير، لَمَا استبان لك شِعْر هذا مِنْ ذاك، فالَّذي عليه ذلك الشِّعْر إنْ هو إلَّا تقرير ما استقرَّ في كُتُب أئمَّة الدَّعوة في شأن توحيد الألوهيَّة وتوحيد الرُّبُوبيَّة، وهجوم على مَنْ يترخَّص في التَّوسُّل وبناء القِبَاب على قبور الأنبياء والصَّحابة والصَّالحين، ومعجم تتكرَّر فيه كلمات «الشِّرْك» و«الكُفْر» و«النِّفاق»، حتَّى «لقدْ أصبحتْ ألقاب الكُفْر وكلماته كميزان الحرارة، حسَّاسة جِدًّا، تتحرَّك لتُطْلَق على أيِّ شخص، لكبير الأشياء وصغيرها»[1].

نَظْم العلوم

وأنشأوا يَنْظِمون شِعْرًا تعليميًّا يلخِّصُون فيه علوم الدِّين، واشتُهِرَ الشَّيخ سليمان بن عطيَّة المزينيّ، مِنْ دون علماء حائل، بمنظوماته العِلْميَّة في الفقه والفلك، وله في ذلك نَظْم كثير، أهمُّه **روضة المرتاد في نظْم مهمَّات الزَّاد**، وهي نَظْم لِمَتْن كتاب **زاد المستقنِع**[2]، في الفقه الحنبليّ، بلغتْ أبياتها تسعمئة وألف بيت، وقيل عنها: إنَّها «مِنْ أشهر المنظومات العلميَّة الَّتي سارتْ بها رُكْبان نَجْد، في القرن الرَّابع عشر الهجريّ»[3]، **والحائليَّة**، في البيوع، في ستِّين ومئة بيت[4]، ومَنْسَك في

(١) الحامد، عبد الله. المرجع السَّابق، ص ١١٤.

(٢) الزِّرِكْلِيّ، خير الدِّين. **الأعلام**، ١/ ١٣٠؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٣٩.

(٣) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٣٩.

(٤) الزِّرِكْلِيّ، خير الدِّين. المرجع السَّابق، ٣/ ١٣٠؛ الرُّديعان. حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٤٠.

الحجّ[١]، ومنظومة في القواعد الفقهيَّة[٢]، ومنظومة في البُرُوج والنُّجُوم[٣]، ومنظومة في الألغاز والنُّكَت الفقهيَّة[٤]، ونَظَمَ الشَّيخ عبد الله الصَّالح الخليفيّ المتوفَّى سنة ١٣٨١هـ منظومة في البروج الشَّمسيَّة[٥]، كما أنَّ له منظومة نحْويَّة تُدْعَى **الفواتح الجَلِيَّة لنظْم قواعد الآجرُّوميَّة**[٦].

(١) الزِّرِكْلِيّ، خير الدِّين. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٠؛ الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٤٠.
(٢) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٤٠.
(٣) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٤١.
(٤) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٤١.
(٥) آل الشَّيخ، عبد الرَّحمن بن عبد اللَّطيف بن عبد الله. المرجع السَّابق، ص ٤٠٦.
(٦) الرُّديعان، حسَّان. المرجع السَّابق، ص ٣٨٦.

ميلاد شاعر

كان الشَّاعر في حائل، في ذلك الطَّور مِنْ تاريخها، هو المفتي، والقاضي، والمعلِّم، والإمام، والخطيب، والواعظ، وعلى أنَّ نفرًا مِنْ علمائها الشُّعراء نَظَموا شِعْرًا كثيرًا، وعلى أنَّه وقعنا في بعضه على رُوح لا يكاد يَظْهر في قصيدة، حتَّى يَضْمُر في أخرى، فإنَّنا لمْ نظفرْ بذلك الشَّاعر الَّذي جَعَلَ الشِّعْر أغلب صناعاته، أوْ كُلّ صناعاته، وعسى أن يكون لموقع حائل في الطَّرَف القصِيّ مِنْ نَجْد أثر في غياب ذلك الشَّاعر الفرد، ولعلَّ القَدَر كان يهيِّئ لمولده لوْ أُتِيحَ لها أنْ تتقلَّد زعامة نَجْد، زمنًا أطول مِمَّا تقلَّدتْه، قبل أنْ تفقد زعامتها، وتستردّ الرِّياض، والعارض كلُّها، الزَّعامة والقيادة.

قلتُ: لعلَّ القَدَرَ كان يهيِّئ لميلاد الشَّاعر الَّذي يكون الشِّعْر أظهر صناعاته، لأنَّ حائلًا الَّتي لمْ أقرأْ في الكُتُب الَّتي عُنِيَتْ بالأدب الحديث في نَجْد، اسْم شاعر كبير أوْ صغير مِنْ أبنائها، كانتْ قدْ شهدتْ، ميلاد شاعرٍ كان الشِّعْر أغلب صناعاته، وعسى أن يكون الشَّيخ سليمان بن عطيَّة المزينيّ ذلك الشَّاعر الَّذي رَدَّ إلى حائل وجبليها نَسَمات مِنْ شِعْر طالما هَبَّ عليها، قبل أن يَغِيض ماؤه.

لَمْ يكنْ سليمان بن عطيَّة المزينيّ بِدْعًا في إمارة الجبل، نشأ فيها كما نشأ أشياخه وَلِدَاته، أصاب الطَّعام الَّذي طَعِمُوه، واختلفَ إلى الأشياخ والمعلِّمين الَّذين اختلفَ إليهم مَنْ قبله ومَنْ بعده[١]، وكان يعتزي إلى بيت عِلْم، فأبوه الشَّيخ عطيَّة السُّليمان المزينيّ ترجم له صاحب **زهر الخمائل**، وقال عنه: «كان حريصًا مجتهدًا»[٢]، و«كان مُجِدًّا في طلب العِلْم، حتَّى في حال كِبَره، وجَمَعَ مكتبة رأيتُها عند ولده الشَّيخ سليمان العطيَّة، وحَصَلَ له طَرَف صالح مِنَ العِلْم»[٣]، وترجم لابنه سليمان، وقال عنه: «قرأ القرآن على الشَّيخ شكر بن حسين، وطَلَبَ العِلْم على الشَّيخ عبد الله بن مسلم والشَّيخ عبد الله الصَّالح الخليفيّ. كان مولَعًا بالفقه وجَمْع كُتُبه»[٤]، ورأى عليّ الهنديّ عنده مكتبة كبرى «ذكر أنَّه جَمَعَ بعضها، وورث البعض الآخر عنْ والده عطيَّة السُّليمان»[٥].

لكنْ مهلًا! فسليمان بن عطيَّة المزينيّ الَّذي وُصِفَ بـ «العالم الجليل والفقيه المتبحِّر»[٦]، وُصِفَ، كذلك، بـ «الشَّاعر الأديب المتفنِّن»[٧]، ومع ولعه بالفقه وكُتُبه[٨]، كان مشغوفًا «بجمْع

(١) يُنْظَر شيوخه في: القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٣.
(٢) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٣.
(٣) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ١٤.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٠.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢١.
(٦) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٣.
(٧) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٣.
(٨) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٠.

الكُتُب الأدبيَّة أيضًا ومطالعتها لا سيَّما تآليف الأدباء الكبار»[١]، ولمْ يَصْرِفْه إكبابه على كُتُب الشَّيخين ابن تيمية وابن القيِّم[٢]، عنْ كُتُب الأدب ودواوين الشِّعْر، فكانتْ هذه وتلك «صَبُوحه وغَبُوقه، وانتفع مِنْها انتفاعًا كثيرًا»[٣].

طَوَّعَ سليمان بن عطيَّة المزينيّ عِلْمه الواسع بالفقْه، وتَبَحُّره في علوم الشَّريعة للشِّعْر، وكلُّ آثاره الَّتي نَعْرفها في الفقْه قرأها العلماء وطلبة العِلْم منظومةً في قصائد بلغتْ إحداهنَّ الألوف عدًّا[٤]، وسَلِسَ بين يديه عويص المشكلات الفقهيَّة، فإذا بها تلائم لُغة الشِّعْر وأوزانه وأعاريضه، وكان له «قوَّة في الشِّعْر وعُمْق إدراك فيه»[٥]، حتَّى كانتْ كثرة النَّظْم أظْهر صفاته[٦].

ويغلب على الظَّنّ أنَّ انقطاع المزينيّ لنَظْم متون الفقه ومشكلاته في قصائد وأراجيز ومقطَّعات لا غير، دون أن يشغل نَفْسه بتأليف الكُتُب والشُّرُوح = قدْ زيَّن له معالجة شِعْر لا يريد به العِلْم ولا الفقْه ولا النَّحْو ولا الغريب ولا البروج ولا الأفلاك، إنَّما يريد به وَجْه الفنّ ليس إلَّا، فذلَّل نَظْمه لتلك العلوم الشِّعْرَ على لسانه، ورفدْته قراءته الواسعة بثقافة أدبيَّة وشِعْريَّة متينة، وإحاطة تامَّة بالشِّعْر العربيّ القديم، وأُورثه ذوقًا رفيعًا وبَصَرًا

(١) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢١.
(٢) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٣.
(٣) القاضي، محمَّد بن عثمان. المرجع السَّابق، ١/ ١٣٣.
(٤) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢٠.
(٥) الهنديّ، عليّ بن محمَّد. المرجع السَّابق، ص ٢١.
(٦) الزِّرِكْليّ، خير الدِّين. الأعلام، ٣/ ١٣٠.

نافذًا بالشِّعْر، ونحن إذا استثنينا منظوماته في الفقه والنَّحْو والفَلَك وما إليها، لا نَظْهَرُ في شِعْره على مَشَابِهَ مِنْ نَظْم علماء الدَّعوة السَّلَفِيَّة في نَجْد، وديوانه الَّذي بين أيدينا لا نقرأ فيه دفاعًا عنْ دعوةٍ، ولا سجالًا لأخصامها، ولا تغزُّلًا بها، فسليمان المزينيّ يمدح على معهود الشُّعراء الفحول في العربيَّة، ويرثي، ويتغزَّل، وينشئ شِعْرًا في المديح النَّبويّ، ويَصِف، ويَعِظ ويُذَكِّر، وهو في كلّ ذلك أدنَى إلى الشُّعراء مِنْه إلى العلماء.

كان سليمان المزينيّ فقيهًا عالمًا، لأنَّ عصره وبيئته لمْ يَعْرفا صورة مِنْ صُوَر العِلْم تباين صورة العالِم الدِّينيّ وهيئته، فاتَّصل سليمان بعصره وبيئته وانفصل، اتَّصل بهما لأنَّه لا سبيل، آنئذٍ، للعلْم والمعرفة إلَّا سبيل الدِّين وعلومه، وانفصل عنهما لَمَّا اتَّخَذَ مِنْ تلك المعرفة جسْرًا إلى الشِّعْر، فأعطَى العصر والبيئة ما يبغيانه: شِعْرًا عِلْميًّا يوجِز مسائل الفقه وييسِّرها، وأعطَى نَفْسه ما ترجوه مِنَ الفنّ والجَمَال، وربَّما كان إحساسه بالشِّعْر فوْق إحساسه بالعِلْم الشَّرْعيّ، أوْ لعلَّه يوازيه، فالشَّاعر الَّذي عاجلتْه المَنِيَّة في السَّادسة والأربعين مِنْ عمره، لمْ يكنِ الشِّعْر لديه رياضةً عَرُوضيَّةً، يُظْهِر فيها قدرته على النَّظْم والقريض، إنَّما كان حفيًّا بالشِّعْر وفيًّا له، وديوان شِعْره الَّذي قرأه النَّاس مطبوعًا سنة ١٤٢٤هـ، بعْد إحدى وستِّين سنةً مِنْ وفاته، كان الشَّاعر قدْ جَمَعَ مُتَفَرِّقه وأَعَدَّه ووضع مقدِّمته، ولعلَّه، لوْ أمهله القَدَر، سَعَى في نشْره، فعَرَفَه الأدب كما عَرَفَه الفقْه، ولمْ ينتظرِ القرَّاء ولا النُّقَّاد مرور ستَّة عقود حتَّى يَظْهروا على ديوانه، إنْ أُتيحَ لهم أن يَظْهروا عليه.

معنى «الشَّاعر»

وأنا أقرأ في جَمْع سليمان المزينيّ ما تَفَرَّقَ مِنْ شِعْره في «ديوان»، ثُمَّ توطئته بمقدِّمة، شعورًا بخلوصه لهذا الضَّرْب مِنَ الأدب، وقصْدًا إلى تحقيق معنى «الشَّاعر» في نَفْسه، وعساه قَدَّرَ أنَّه أَقْدَمَ على شيْء جديد في مجتمعه الَّذي يعيش فيه، وبيئته الَّتي ينتمي إليها، وإذا ما استثنينا إقدام حسن بن محمَّد الحِجّيّ على نشْر قصيدته السِّياسيَّة الواهِيَة في ديوان دعاه **صدى الحرب**، فإنَّ سليمان المزينيّ مارس شيئًا جديدًا طريفًا، على أنَّ ديوان الحِجّيّ أقرب إلى الدِّعاية السِّياسيَّة مِنْه إلى الشِّعْر، ولوْ كان مِنْ متخلِّف الشِّعْر وساقطه.

ومقدِّمة ديوان سليمان بن عطيَّة المزينيّ ليستْ بالطَّويلة، وهي، على قِصَرها، تجلو لنا عمل رجل عَدَا عتبة الفقْه إلى عَتَبة الشِّعْر، حين صنع مِنْ شِعْره المتفرِّق «ديوانًا»، تَخَيَّرَ فيه ما اطمأنَّ إليه مِنْ قصائده «المضمَّنة خِيار المعاني، المَصُوغة بأحسن المباني». ويُخَيَّل إليَّ أنَّه إنَّما أثبت جملة منظوماته في الفقْه وأحكامه، ليشحن ديوانه بشِعْر يباين شِعْر الفقهاء، فيه المديح النَّبويّ، وفيه الغزل، فيُرْضي الفقهاء والمتديِّنين بذلك النَّظْم العِلْمِيّ، ويُرْضي طُلَّاب الجَمَال ـ ويُرْضي نَفْسه ـ بشِعْر يَقْصِد به إلى الفنّ، «إذِ الشِّعْر مستراحُ أرواح الأذكياء، واستنشده سيِّد الأنبياء ﷺ، وقال فيما نَقَلَتْه عنه الأُمَّة: إنَّ مِنَ الشِّعْر لحكمةً».

روحيَّة وتصوُّف!

وفي شِعْر المزينيّ روحانيَّة تشبه بعض الشَّبه شِعْر المتصوِّفة والإشراقيِّين. لمْ تَطُلْ فتبلغ مبلغ القصائد الطِّوَال، فأنشأ منها البيتين والثلاثة والأربعة والمُقَطَّعة، لكنَّها، مهما كانتْ قصيرة، تَجْلُو لنا ما يطويه صَدْر هذا الفقيه السَّلَفِيّ مِنْ وجْدٍ ومِنْ شوق

وَإِذَا سَكَتُّ بَدَأْتَنِي ... بِفَضَائِلٍ وَرَحِمْتَنِي
وَإِذَا مَرِضْتُ شَفَيْتَنِي ... وَإِذَا سَأَلْتُ أَجَبْتَنِي
وَإِذَا شَكَرْتُكَ زِدْتَنِي ... نِعَمًا كَمَا عَوَّدْتَنِي
وَوَعَدْتَنِي فَوَفَيْتَ لِي ... فَمَنَحْتَنِي وَبَهَرْتَنِي
فَلَئِنْ أَجُدْ بِالمَالِ يَا ... رَبِّي فَقَدْ وَفَّقْتَنِي
وَالجُودُ مِنْكَ لِأَنَّمَا ... الأَمْوَالُ أَنْتَ أَخَذْتَنِي[1]

يَا مَالِكَ المُلْكِ يَا ذَا الجُودِ مَوْلَانَا ... وَخَالِقَ الخَلْقِ مَنْ بِالفَضْلِ رَبَّانَا
يَا سَيِّدِي وَمَلَاذِي رَازِقِي سَنَدِي ... وَرَاحِمِي، مَنْ حَبَانَا مِنْهُ إِحْسَانَا
وَغَافِرَ الذَّنْبِ لِلْجَانِي بِرَحْمَتِهِ ... اغْفِرْ لِذَا النَّاظِمِ الجَانِي سُلَيْمَانَا
وَاسْتُرْ عَلَيْهِ أُمُورًا كَانَ يَكْتُمُهَا ... فَأَنْتَ ذُو الصَّفْحِ سَتَّارٌ لِمَا شَانَا[2]

لكنَّ «لاميَّته» الطَّويلة في مدْح النَّبيّ ﷺ «الوسيلة في مَدْح ذي الفضيلة»، تَجْلُو لنا قُدرة هذا الفقيه السَّلَفِيّ على نَظْم هذا الشِّعْر

(١) المزينيّ، سليمان بن عطيَّة. الدِّيوان، ص ٣٢.
(٢) المزينيّ، سليمان بن عطيَّة. المرجع السَّابق، ص ٣٣.

الَّذي ذاع وشاع في البيئات الصُّوفيَّة، وكشفتْ هذه المِدْحة النَّبويَّة عمَّا طواه قلب الشَّاعر مِنْ شوق وتوق هما إلى التَّصوُّف أدنَى مِنْهما إلى السَّلَفِيَّة، ولوْ أنَّنا سُقْنا هذه القصيدة، دون أنْ نرفعها إلى منشئها، لظنَّ قارئها انتسابها إلى أيّ شاعر مِنْ شعراء الدُّنيا، إلَّا أن يكون هذا الشَّاعر مِنْ نَجْد، معقل السَّلفيَّة، فالمفردات عليها مِسْحة مِنْ أعلام التَّصوُّف، والأَخْيِلة هي ما جادتْ به قرائحهم، اتَّبعهم سليمان بن عطيَّة المزينيّ فلمْ يخرجْ عنْ حدودهم ولا رسومهم، ولمْ يفارقْ طريقة القوم في بناء قصائدهم، فالقصيدة تُفْتَتَح بنسيب يبثّ فيه الشَّاعر لاعج أشواقٍ ما إنْ كتمها، حينًا، حتَّى نَمَّتْ عمَّا به، حتَّى إذا ما خُيِّلَ إلى القارئ أنَّه إزاء قصيدة في الغزل والنَّسيب، إذا بالشَّاعر يلوم نفْسه على أنْ سلكتْ سبيل الغَواية، ولن يُخْرجه مِنَ الوهدة الَّتي وطئها إلَّا مدْح النبيّ المصطفَى ﷺ، وإذا القصيدة قصيدة في المديح النَّبويّ، وإذا بنا، وكأنَّنا نقرأ شِعْرًا للبوصيريّ أوِ البُرَعيّ، فنَهْج المِدْحة النَّبويَّة واحد[1]، تعدادٌ لمعجزات النَّبيّ ﷺ: فإيوان كسرى يَسقط، والجنّ حِيلَ ما بينهم وبين استراق السَّمْع، والغمامة تُظَلِّل هامته الشَّريفة وتَقِيه حَرّ الهجير، والأحجار والأشجار تنطق بالسَّلام عليه، والجِذْع يَحِنّ، والحمامة تُحَوِّم حول الغار، والعنكبوت تَضْرب نسْجها على بابه... إلى آخر تلك الآيات والمعجزات الَّتي قلَّما خَلَتْ منها مِدْحةٌ مِنَ المدائح النَّبويَّة

سَرَى بِقَلْبِكَ بَدْرٌ غَيْرُ مُنْفَتِلِ وَأَنْخَنَتْكَ سِهَامُ الأَعْيُنِ النُّجُلِ

(١) مبارك، زكيّ. **المدائح النَّبويَّة** (بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م)، ص ١٣٥.

وَصَيَّرَتْكَ رَهِينَ الوَجْهِ مُسْفِرَةٌ عَنْ أَبْلَجٍ مُسْتَدِيرِ الخَلْقِ مُكْتَمِلِ
مُوَرَّدِ الخَدِّ فِي أَسْنَانِهِ شَنَبٌ وَالرِّيقُ مِنْهُ حَكَى الصَّافِي مِنَ العَسَلِ
تُرْخِي عَلَيْهِ سَوَادَ اللَّيْلِ مُنْعَطِفًا مِنْ فَاحِمِ الفَرْعِ فَوْقَ الرِّدْفِ مُنْسَدِلِ
مِعْطِيرَةٌ تَسْلُبُ الأَلْبَابَ صُورَتُهَا بِحُسْنِهَا وَتُعِيدُ الذِّهْنَ فِي شُغُلِ
فَغَازَلَتْكَ بِعَيْنٍ غَيْرِ عَاطِفَةٍ عَلَيْكَ إِذْ هِيَ كَحْلَاءٌ بَلَا كُحُلِ
فَصَادَفَتْ قَلْبَكَ الهَاجِي عَلَى وَلَهٍ فَقُمْتَ تَهْذِي بِهَا كَالشَّارِبِ الثَّمِلِ

وتمضي القصيدة في هذا الغزل الَّذي تتجاوب فيه الصُّور المستجلَبة مِنْ مقدِّمات القصيدة الصُّوفيَّة، وأنا أستشفّ في القصيدة حركة وحياة، مبعثهما تلك التَّشبيهات والاستعارات الَّتي يكتنز بها الشِّعْر الصُّوفيّ، ويقيم سليمان المزينيّ قصيدته على حديث متخيَّل يُلقيه صديقه إليه، عمَّا لاقاه مِنْ هَمّ الحبّ ولاعج الشَّوق، فإذا بالشَّاعر، بدل أن يخفِّف مِنْ شكوَى صديقه، يشكو إليه حاله هو وألمه

شَكَوْتَ لِي ودُمُوعُ العَيْنِ هَاطِلَةٌ مِنْ طَرْفَةِ الطَّرْفِ لَا مِنْ طَرْفَةِ الأَسَلِ
حَالِي كَحَالِكَ لَكِنْ لَسْتُ أَكْشِفُهَا قَصْدًا فَأَكْتُمُ مَا فِي القَلْبِ مِنْ عِلَلِ
فَنَمَّ بِي وَجْدُ مَا أَخْفَيْتُهُ جَزَعًا عَنِ الوُشَاةِ بِمَا فِي الحَالِ مِنْ خَلَلِ
فَمَا مُطَوَّقَةٌ تَبْكِي عَلَى فَنَنٍ فَوْقَ الرُّبَا بِأَشَدَّ اليَوْمَ مِنْ زُحَلِ
أَوْ ذَاتُ طِفْلَيْنِ لَمَّا رَاهَقَا افْتُقِدَا مِنْ عِنْدِهَا فَرَمَاهَا الدَّهْرُ بِالثَّكَلِ
أَطَعْتُ دَاعِيَ الهَوَى قِدْمًا فَأَشْمَتَ بِي مِنْ شُؤْمِهِ كُلَّ ذِي بَغْيٍ وَذِي دَخَلِ
وَفَلَّ عَزْمِي وَأَرْوَانِي وَكَلَّفَنِي نَظْمَ الفَرَائِدِ بِالتَّشْبِيبِ وَالغَزَلِ

حتَّى إذا بلغ هذا القَدْر مِنَ الشَّكوى ومِنَ الألم، أدرك أنَّه لا سبيل إلى كشْف ما به إلَّا برفْض ما كان فيه مِنْ غيّ، وترْك ما فات مِنْ خطأ وزلل، فعسى أن يغفر له ربُّه بمدح النَّبيّ المصطفَى ﷺ

عَسَى الفَعَالُ الَّتِي اسْوَدَّتْ صَحَائِفُهَا ... تُعْفَى بِمَدْحِي لِطَهَ أَشْرَفِ الرُّسُلِ
مُحَمَّدِ المُصْطَفَى أَزْكَى الوَرَى نَسَبًا ... وَخَيْرِ دَاعٍ هَدَى لِأَنْهَجِ السُّبُلِ
نَبِيِّنَا الهَاشِمِيِّ الأَبْطَحِيِّ أَتَى ... بِوَاضِحِ الحَقِّ مِنْ عِنْدِ الإِلَهِ جَلِي

فإذا ما مضتِ القصيدة، شيئًا فشيئًا، وكادتْ تبلغ غايتها، يلوذ الشَّاعر بنَفْسه، ويستذكر أنَّه مسيء مذنب، فيرفع الأكُفّ إلى الله ـ تبارك وتعالَى ـ أن يغفر له بحبّ المصطفَى ﷺ

يَا رَبِّ إِنِّي مُسِيءٌ مُذْنِبٌ فَأَنَا ... أَرْجُوكَ تَعْفُو خَطِيئَاتِي وَتَغْفِرُ لِي
بِحُبِّ أَحْمَدَ إِنِّي لِي بِهِ سَبَبٌ ... يَقْوَى بِهِ حُسْنُ ظَنٍّ غَيْرِ مُنْفَصِلِ
وَأَنْ أَفُوزَ بِهِ دُنْيَا وَآخِرَةً ... وَأَنْ أَنَالَ بِهِ مَا شِئْتُ مِنْ أَمَلِي[1]

لكلّ ذلك كان سليمان بن عطيَّة المزينيّ الشَّاعر الَّذي كان الشِّعْر أغلب صناعاته. نعمْ، كان فقيهًا، بلْ كان مِنْ أعلام الفقْه في نَجْد، لكنَّ الفقْه لمْ يَحُلْ بينه وبين أن يصيبه مَسٌّ مِنْ وادي عبقر، فينطلق لسانه بشِعْر عليه مخايل الفنّ، وإنَّ ما انطوَى عليه ديوانه مِنْ شِعْر، يجلو لنا شاعرًا خاض في غير فنٍّ مِنْ فنون القصيد، لمْ تستهلك المنظومات العِلْميَّة في الفقْه والنَّحْو والفَلَك جهده، فألفَى في سائر ضروب الشِّعْر غايته وطَلِبَته، فمدح وتغزَّل

(١) المزينيّ، سليمان بن عطيَّة. المرجع السَّابق، ص ٤٢.

ووعظ ونصح، ولستُ أشكُّ في أنَّ حظَّه مِنَ الثَّقافة كان كبيرًا جليلًا، يَعْرف ذلك مَنْ ظهر على ديوانه، ومَنْ تأمَّل في أثنائه، وتُفْصِح قصائده عنْ عِلْمٍ واسعٍ باللُّغة، ومَقصورته الَّتي عارَضَ بها ابن دُرَيْد تُجَلِّي لنا مقدار ذلك العِلْم، والمَلَكَة الَّتي أُوتِيها على إنشاء الشِّعْر[1]

مُـتَـمِّـمٌ بَـكَـى أَخَـاهُ مَـالِـكًـا ... لَـمَّا رَأَى صَدَاهُ مِنْ فَوْقِ العَفَا
رَمَـاهُ مِـنْ نَـجْـلِ الـوَلِـيـدِ حَـادِثٌ ... فَجَلَّ مِنْ سَيْفٍ ضِرَارٍ فِي البِلَى
أَحْـكِـي بُـكَـاهُ إِذْ عَـرَانِـي فَـادِحٌ ... خَـطْـبٌ مُـلِـمٌّ هَـدَّ أَرْكَـانَ القُـوَى
أَحْـنَـى عَـلَـى إِلْـفٍ بَـدِيـعٍ وَصْـفُـهُ ... مَا خَانَ وِدًّا أَوْ نَحَا نَحْوَ الجَفَا
حَازَ المَعَالِي كُـلَّـهَا فِي طَبْعِهِ ... فَـمَـا بَـغَـى فِـي حُـسْـنِـهِ وَلَا طَـغَـى
لَـهُ مُـحَـيًّـا كَـالـبُـدَيْـرِ مُـسْـفِـرٌ ... فِي اللَّيْلِ أَوْ كَالشَّمْسِ صَحْوًا فِي الضُّحَى
يَـزِيـنُـهُ فَـرْعٌ عَـلَـيْـهِ حَـالِـكٌ ... مُـعْـتَـكِـلٌ يَـخْـشَـى الضِّيَاءَ كَالدُّجَى
شَـمَّـاءُ جِـيـدٍ ذَاتُ ثَـغْـرٍ بَـاسِـمٍ ... وَقَـدُّهَـا مُـقَـوَّمٌ مِـثْـلَ الـقَـنَـا
رَقِـيـقَـةٌ أَطْـرَافُـهَـا قَـسِـيـمَـةٌ ... كَـحْـلَاءُ عَيْنٍ مِثْلَ مُقْلَةِ المَهَا

كما نستبين مِنْ هذه القصيدة البديعة صفةً أخرى، لا أستبعد أنَّها هي الَّتي دَفَعَتْه إلى معارضة مقصورة ابن دريد = هي صفة الشَّاعر الحكيم

اسْلُكْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا تَعْدِلْ بِهِ ... شَيْئًا فَمَنْ يَسْلُكْ سِوَاهُ مَا نَجَا
وَالقَصْدُ فِي الأُمُورِ نَهْجٌ وَسَطٌ ... وَاحْذَرْ مِنَ الغُلُوِّ فِيهَا وَالجَفَا

(١) المزيني، سليمان بن عطيَّة. المرجع السَّابق، ص ص ١٤١ ـ ١٤٤.

اصْحَبْ فَتًى مُهَذَّبًا سَمَيْذَعًا ... بَرًّا نَصُوحًا طَبْعُهُ صِدْقُ الإِخَا
وَاصْمُتْ فَإِنَّ الصَّمْتَ فِيهِ رِفْعَةٌ ... وَيَسْلَمُ المَرْءُ بِهِ عَنِ الخَطَا
لَكَنَّمَا النُّطْقُ بِحَقٍّ فَاضِلٌ ... فَقُلْ بِهِ وَلَا تُعَرِّجْ لِلْمِرَا
وَالصِّدْقُ يَهْدِي لِلْمَقَامَاتِ العُلَى ... وَالزُّورُ يَهْدِي لِلْفُجُورِ وَالخَنَا

مَنْ يَعْشَقِ الغِيدَ سَلَبْنَ لُبَّهُ ... وَضَلَّ كَالنَّشْوَانِ مِنْ سُكْرِ الْهَوَى
يَصْحُو مُدِيرُ الكَاسِ مِنْ نَشْوَاتِهِ ... وَالمُسْتَهَامُ مِنْ هَوَاهُ مَا صَحَا

إِنَّ القَرِيضَ قَدْ مَضَى زَمَانُهُ ... وَانْبَتَّ مِنْ تَوْقِيرِهِ حَبْلُ الرَّجَا
لَكِنَّهُ عِنْدَ الكِرَامِ فَائِتٌ ... وَعِنْدَ أَوْبَاشِ المَلَا لَا يُرْتَضَى
وَإِنَّ لِي فِيهِ لَعِلْمًا وَاسِعًا ... مُسْتَوْعِبًا أَنْوَاعَهُ بِلَا امْتِرَا

وعلى هذا المنهج تلوح لنا في غير قصيدة مِنْ قصائده قدرة على احتذاء شِعْر الفحول، متانةَ لُغةٍ، وشدَّةَ سَبْكٍ، وإحكامَ نسْجٍ.

وأخيرًا يمكن القول: إنَّ شِعْر سليمان بن عطيَّة المزينيّ آذَنَ بميلاد شاعر لمْ يستطِعِ الفقْه أن يُسْكِتَ في داخله صوت الفنَّان، فأقبل على حائل، على حِينِ فترةٍ مِنَ الشِّعْر، بعصا ساحرٍ وقلب نبيّ!

رأينا أنَّ الشِّعْر في حائل أنشأه العلماء الدِّينيُّون، فَهُمْ، كما مَرَّ بنا، يمدحون أشياخهم، ويرثونهم، وإذا عَنَّ لهم يَصِفون، وهم اتَّخذوا الشِّعْر آلة لتلخيص العلوم، وشرْح المتون، ولمْ يخوضوا فيما يخوض الشُّعراء فيه، لمْ ينقطعوا إلى مدْح الأمراء والحاكمين، كما انقطع أقران لهم في غير قُطْر عربيّ، إلَّا قليلًا قليلًا، وكان شِعْرهم، في الأعمّ الأغلب، وَفِيًّا للعِلْم الدِّينيّ الَّذي عُرِفُوا به. وعلى أنَّهم لمْ يمدحوا الأمراء والسَّلاطين، فإنَّهم لمْ يعالجوا شؤون الحياة وما اضطربتْ فيه، وشِعْرهم، ذلك الَّذي قرأْنا طَرَفًا مِنْه، في الدَّولة العثمانيَّة، لا يختلف عنِ النَّثْر والخطابة، إلَّا في أنَّه معقود بقوافٍ، وما كان ذلك النَّظْم إلَّا بيانًا لِمَا اعتقدوه حُكْمًا للشَّرع، فيمنْ والَى مَنْ لا يقيم حدود الله.

إذنْ، لمْ يَتَّخِذْ شعراء حائل الشِّعْر تَعِلَّة لبلوغ مرتبة عند السُّلطان، ولمْ نرهم يتكسَّبون به، ولا أحسبهم كانوا في حاجة إلى التَّكسُّب، ومِنْهم القاضي، والفقيه، والمفتي، والإمام، والخطيب، والمعلِّم.

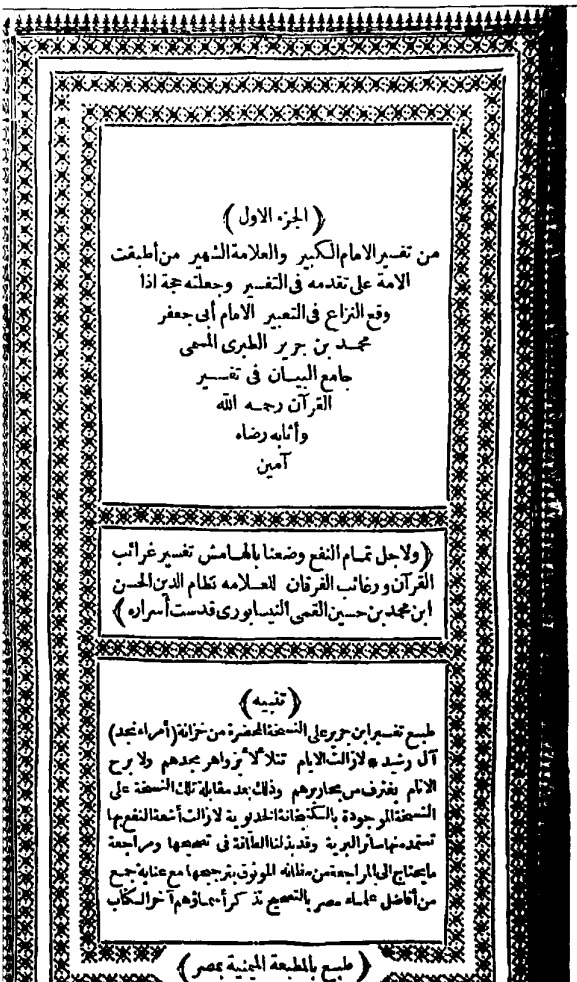
﴿الجزء الاول﴾
من تفسير الامام الكبير والعلامة الشهير من أطبقت
الامة على تقدمه فى التفسير وجعلته حجة اذا
وقع النزاع فى التعبير الامام أبى جعفر
محمد بن جرير الطبرى المسمى
جامع البيان فى تفسير
القرآن رحمه الله
وأثابه رضاه
آمين

﴿ولاجل تمام النفع وضعنا بالهامش تفسير غرائب
القرآن و رغائب الفرقان للعلامه نظام الدين الحسن
ابن محمد بن حسين القمى النيسابورى قدست أسراره﴾

﴿تنبيه﴾
طبع تفسير ابن جرير على النسخة الحضرة من خزانة (أمراء نجد)
آل رشيد * لازالت الايام تتلألأ بزواهر مجدهم ولا برح
الانام يغترف من بحار برهم وذلك بعد مقابلة تلك النسخة على
النسخة الموجودة بالكتبخانة الخديوية لازالت أنعم النفع بها
تستمد منها سائر البرية وقد بذلنا الطاقة فى تصحيحها ومراجعة
ما يحتاج الى المراجعة من نقله المونوق بترجيحها مع عناية جمع
من أفاضل علماء مصر بالتصحيح تذكر أسماؤهم آخر الكتاب

﴿طبع بالمطبعة الميمنية بمصر﴾

تفسير ابن جرير الطَّبريّ، المطبعة الميمنيَّة بالقاهرة، طُبِعَ على نسخة محفوظة في خزانة آل عبيد الرَّشيد بحائل

بَيْدَ أنَّ حائلًا هذه المدينة الَّتي يكاد يُجْمِع كلُّ مَنْ دَرَسَ طَرَفًا مِنْ تاريخها، على أنَّه لا سابقة لها في العِلْم ولا الثَّقافة، قَبْلَ دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب= كانتْ قدِ انتصرتْ لنَفْسها، واستجمعتْ قواها، فإذا بهذه المدينة، الَّتي خَلَتْ معاهدها مِنَ العلوم والآداب = تنشط للعِلْم الشَّرعيّ والأدب والشِّعْر والكتاب، وإذا بهذه الإمارة الَّتي كانتْ تَتَحَيَّن قدوم قاضٍ مِنَ الدِّرعيَّة أوِ الرِّياض أوِ القصيم، يَجْلُب معه، وقدْ ألقَى فيها عصاه، كُتُبه وأسفاره = تمتلئ أنحاؤها بخزائن الكُتُب، ويَنْشط فيها النَّسْخ والمقابلة والمطابقة، حتَّى إذا كان ذلك أهدتْ إلى نَجْدٍ والجزيرة العربيَّة والعالَم الإسلاميّ كلّه نُسْخة فريدة نادرة لِأَجَلِّ تفسير في تاريخ الإسلام، وهو **تفسير ابن جرير الطَّبريّ**[1]، وكأنَّها، وقدْ ظُنَّ أنْ لا أثر فيها للعِلْم والكتاب، قدِ ادَّخرها القَدَر لهذه المَأْثُرَة العظيمة، أوْ كأنَّما كانتْ مستودعًا وحِرْزًا حريزًا لهذا الكتاب الجليل، حتَّى إذا حانَتْ ساعة طباعته ونَشْره، فَزِعَ المحقّقون والنَّاشرون إلى النُّسخة الحائليَّة الفريدة[2]، الَّتي احتفظتْ بها مكتبة الأمير المثقَّف حمود العبيد الرَّشيد[3].

---

(١) الظَّاهريّ، أبو عبد الرَّحمن ابن عقيل. المرجع السَّابق، ص ٢٥٧؛ العريفيّ، أحمد الفهد. **قضاة حائل**، ص ٨٣.

(٢) العنقريّ، حمد. المرجع السَّابق، ص ١٢٧؛ الرُّديعان، حسَّان. **فهارس المخطوطات الأصليّة في مدينة حائل**، ص ٤٨٦.

(٣) العفنان، سعد بن خلف. «المكتبات في حائل»، **مجلَّة تجارة حائل**، رمضان ١٤١٤هـ، ص ص ٤٩ ـ ٥٤، تجدها في: العريفيّ، أحمد الفهد. **قضاة حائل**، ص ٨٣.

ثَبَت المصادر والمراجع

آل الشَّيخ، عبد الرَّحمن بن عبد اللَّطيف بن عبد الله

- مشاهير علماء نَجْد وغيرهم (الرِّياض: دار اليمامة للبحث والتَّرجمة والنَّشر، ١٣٩٤هـ).

ابن إدريس، عبد الله

- شعراء نَجْد المعاصرون (الرِّياض: النَّادي الأدبيّ، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م).

أبو عليَّة، عبد الفتَّاح

- تاريخ الدَّولة السُّعُوديَّة الثَّانية ١٢٥٦ ـ ١٣٠٩هـ = ١٨٤٠ ـ ١٨٩١م (الرِّياض: دار المرِّيخ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م).

البادي، عوض

- الأوضاع السِّياسيَّة في وسط الجزيرة العربيَّة عند نهاية القرن التَّاسع عشر (حائل ـ القصيم ـ الرِّياض)، نصّ رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نَجْد عام ١٨٩٣م = ١٣١٠هـ (الرِّياض: دار بلاد العرب، واشنطن: المعهد العربيّ للدِّراسات الدَّوليَّة، ١٩٩٧م).
- الرَّحَّالة الأوربِّيُّون في شمال وسط الجزيرة العربيَّة، منطقة حائل ١٨٤٥ ـ ١٩٢١م (حائل: نادي حائل الأدبيّ الثَّقافيّ، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م).

بافقيه، حسين محمَّد

- ذاكرة الرِّواق وحُلْم المطبعة، أصول الثَّقافة الحديثة في مكَّة المكرَّمة ١١٠١ ـ ١٣٨٤هـ = ١٦٨٩ ـ ١٩٦٤م (بيروت: دار المؤلِّف، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م).

البسَّام، أحمد بن عبد العزيز بن محمَّد

- الحياة العِلْميَّة في وسط الجزيرة العربيَّة في القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر الهجريَّين وأثر دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب فيها (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م).

البسَّام، عبد الله بن عبد الرَّحمن بن صالح

- علماء نَجْد خلال ثمانية قرون (الرِّياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ).

بلنت، اللَّيدي آن

- رحلة إلى بلاد نَجْد، ترجمة محمَّد أنعم غالب (الرِّياض: دار اليمامة للبحث والتَّرجمة والنَّشر، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م).

بوركهارت، جون لويس

- ملاحظات عنِ البدو والوهَّابيِّين، ترجمه وعلَّق عليه عبد الله الصَّالح العثيمين (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٤هـ).

الجاسر، حمد

- مؤرِّخو نَجْد مِنْ أهلها (الرِّياض: مركز حمد الجاسر الثَّقافيّ، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م).

الجُمَحِيّ، محمَّد ابن سلَّام (ت ٢٣١هـ = ٨٤٥م)

- طبقات فُحُول الشُّعراء، قرأه وشرحه محمود محمَّد شاكر (القاهرة: مطبعة المدنيّ، ١٩٧٤م).

الحامد، عبد الله

- **الشِّعْر في الجزيرة العربيَّة، نَجْد والحجاز والأحساء والقطيف خِلَالَ قرنين ١١٥٠ ـ ١٣٥٠هـ** (الرِّياض، دار الكتاب السُّعُوديّ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م).

الحِبْشيّ، عبد الله محمَّد

- الأدب اليمنيّ عصْر خروج الأتراك الأوَّل مِنَ اليمن ١٠٤٥ ـ ١٢٨٩هـ = ١٦٣٥ ـ ١٨٧٩م ([صنعاء؟]: الدَّار اليمنيَّة للنَّشْر والتَّوزيع، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م).

الحِجّيّ، حسن بن محمَّد

- صدى الحرب (القاهرة: مطبعة اللِّواء، ١٣٢٠هـ).

ابن حسين، محمَّد بن سعد

- الأدب الحديث في نَجْد (الرِّياض: جامعة الملك سُعُود، كرسيّ الأدب السُّعُوديّ، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م).

الحسينيّ، الشَّريف محمَّد بن راضي

- الشِّعْر في المدينة في القرن الثَّاني عشر الهجريّ (المدينة المنوَّرة، نادي المدينة المنوَّرة الأدبيّ، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م).

الحربيّ، دلال بنت مخلد

- إسهام المرأة في وقْف الكُتُب في منطقة نَجْد في القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر الهجريَّين (الرِّياض: مكتبة الملك فهد الوطنيَّة، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م).

الحلو، عبد الفتَّاح محمَّد

- شعراء هَجَر مِنَ القرن الثَّاني عشر إلى القرن الرَّابع عشر (القاهرة: مطبعة الفجَّالة، ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م).

حمزة، فؤاد

- قلب جزيرة العرب (الرِّياض: مكتبة النَّصر الحديثة، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م).

ابن حُمَيد، محمَّد بن عبد الله النَّجْديّ ثُمَّ المَكّيّ (ت ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م)

- السُّحُب الوابلة على ضرائح الحنابلة، حقَّقه وقدَّم له وعلَّق عليه بكر بن عبد الله أبو زيد وعبد الرَّحمن بن سليمان العثيمين (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م).

حَنَّا، نِلّلي

- ثقافة الطَّبقة الوسطى في مصر العثمانيَّة، ترجمة رؤوف عبَّاس (القاهرة: مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، ٢٠٠٤م).

الخويطر، خالد بن سليمان بن عليّ

- كون الصَّريف، دراسة تاريخيَّة شاملة لوقائع معركة الصَّريف (بيروت: جداول للنَّشر والتَّرجمة والتَّوزيع، ٢٠١٤م).

الرُّديعان. حسَّان بن إبراهيم

- فضيلة الشَّيخ صالح بن سالم آل بنيَّان، حياته، آثاره، جهوده العِلْميَّة، تحقيق ديوانه (الرِّياض: دار التَّوحيد للنَّشْر، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م).
- فهارس المخطوطات الأصليَّة في مدينة حائل (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣١هـ).
- منبع الكرم والشَّمائل في ذِكْر أخبار وآثار مَنْ عاش مِنْ أهْل العِلْم في حائل (حائل: مكتبة فهد العريفيّ، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م).

الرَّشيد، مضاوي

- السِّياسة في واحة عربيَّة، إمارة آل رشيد (بيروت ـ لندن: دار السَّاقي، ١٩٩٨م).

الزِّرِكْليّ، خير الدِّين

- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرِّجال والنِّساء مِنَ العَرَب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: دار العِلْم للملايين، ١٩٨٤م).
- شِبْه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز (بيروت: دار العِلْم للملايين، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م).

زيادة، خالد

- كاتب السُّلطان: حرفة الفقهاء والمثقَّفين (لندن ـ قبرص: رياض الرَّيِّس للكُتُب والنَّشر، ١٩٩١م).

الذخيّل، خالد

- الوهَّابيَّة بين الشَّرْك وتصدُّع القبيلة (بيروت: الشَّبكة العربيَّة للأبحاث والنَّشر، ٢٠١٣م).

السَّعديّ، حصَّة بنت أحمد بن عبد الرَّحمن

- القُضاة في نَجْد وأثرهم في المجتمع مِنَ القرن العاشر إلى منتصف القرن الثَّاني عشر (الرِّياض: المؤلِّفة، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م).

السُّويداء، عبد الرَّحمن بن زيد

- الثَّقافة والتَّعليم في منطقة حائل قبل المدارس النِّظاميَّة (الرِّياض: دار السُّويداء للنَّشر والتَّوزيع، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م).
- منطقة حائل عبر التَّاريخ (الرِّياض: دار السُّويداء للنَّشر والتَّوزيع، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م).

الشَّطِّيّ، سليمان

- الشِّعْر في الكويت (الكويت: المجلس الوطنيّ للثَّقافة والفنون والآداب، ٢٠١٤م).

الشَّغدليّ، عبد الرَّزَّاق بن حمود الحسين

- حديث الوثائق، سيرة مِنْ حياة الشَّيخ حمود بن حسين الشَّغدليّ وعلاقته بموحِّد الجزيرة الملك عبد العزيز بن عبد الرَّحمن آل سُعُود (الرِّياض: المؤلِّف، المطابع الأهليَّة للأوفست، ١٤١٤هـ).

الشَّنقيطيّ، حسن محمَّد

- النَّهضة الأدبيَّة بِنَجْد (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفَى البابي الحلبيّ، ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م).

الصَّبَّاغ، ليلى

- مِنْ أعلام الفكر العربيّ في العصْر العثمانيّ الأوَّل: محمَّد الأمين المُحِبِّيّ المؤرِّخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (دمشق: الشَّركة المتَّحدة للتَّوزيع، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م).

ضيف، شوقيّ

- الأدب العربيّ المعاصر في مصر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٤م).

طه حسين

- ألوان (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨م).

الظَّاهريّ، أبو عبد الرَّحمن ابن عقيل

- مسائل مِنْ تاريخ الجزيرة العربيَّة (الرِّياض: مؤسَّسة دار الأصالة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م).

عانوتيّ، أسامة

- الحركة الأدبيَّة في بلاد الشَّام خلال القرن الثَّامن عشر (بيروت: منشورات الجامعة اللُّبنانيَّة، ١٩٧١م).

عبُّود، مارون

- مؤلَّفات مارون عبُّود، رُوَّاد النَّهضة الحديثة (بيروت: دار مارون عبُّود، د.ت).

العبوديّ، محمَّد بن ناصر

- معجم أُسَر بريدة (الرِّياض: دار الثَّلوثيَّة للنَّشر والتَّوزيع، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م).

العثيمين، عبد الله الصَّالح

- تاريخ المملكة العربيَّة السُّعوديَّة (الرِّياض: الأمانة العامَّة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م).
- نَجْد قُبَيْل ظهور الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب (الرِّياض: مكتبة الرُّشد، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م).
- نشأة إمارة آل رشيد (الرِّياض: عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الرِّياض، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م).

عجيل، محسن غيَّاض

- سليمان بن صالح الدَّخيل النَّجْديّ، الصَّحفيّ، السِّياسيّ، المؤرِّخ (بيروت: الدَّار العربيَّة للموسوعات، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م).

العريفيّ، أحمد الفهد

- علماء لُبْدة، طرف مِنْ أخبارهم وآثارهم (الرِّياض: المؤلِّف، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م).
- قضاة حائل ١٢٠٠ ـ ١٣٤٠هـ (الرِّياض: د.ن، مطابع دار الجسر، ١٤١٥هـ).
- مقامات حائليَّة الجزء الأوَّل (الرِّياض: المؤلِّف، مطابع النَّاشر العربيّ، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م)، الجزء الثَّاني (الرِّياض: المؤلِّف، مطابع النَّاشر العربيّ، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م).

العريفيّ، فهد العليّ

- حائل (الرِّياض: الرِّئاسة العامَّة لرعاية الشَّباب، سلسلة هذه بلادنا، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).

العقَّاد، عبَّاس محمود

- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي (القاهرة: نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، د.ت).

علوان، عُليّ عبَّاس

تطوُّر الشِّعْر العربيّ الحديث في العراق، اتِّجاهات الرُّؤيا وجماليَّات النَّسيج (بغداد: منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٥م).

العنقريّ، حمد بن عبد الله بن سلطان الحمَّاد

- حُكْم محمَّد العبد الله بن رشيد لِنَجْد ١٢٨٩ ـ ١٣١٥هـ = ١٨٧٣ ـ ١٨٩٧م (الرِّياض: جامعة الملك سُعُود، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م) ـ رسالة ماجستير غير منشورة.

العيسى، ميّ بنت عبد العزيز

- الحياة العِلْميَّة في نَجْد منذ قيام دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب وحتَّى نهاية الدَّولة السُّعُوديَّة الأولى (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ).

غب، هاملتون، وهارولد باون

- المجتمع الإسلاميّ والغرْب ترجمة أحمد إيبش (أبوظبي: هيئة أبوظبي للسِّياحة والثَّقافة، دار الكُتُب الوطنيَّة، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٢م).

الغزاليّ، حُجَّة الإسلام أبو حامد محمَّد بن محمَّد بن محمَّد (ت ٥٠٥هـ = ١١١١م)

- إحياء علوم الدِّين (جدَّة: دار المنهاج، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م).

ڤالين، جورج أوغست «عبد الوليّ»

- رحلات الين إلى جزيرة العرب، ترجمة سمير سليم شبليّ، راجعها يوسف إبراهيم يزبك (لندن: دار الورَّاق، ٢٠٠٩م).

القاضي، محمَّد بن عثمان

- روضة النَّاظرين عنْ مآثر علماء نَجْد وحوادث السِّنين (القاهرة: مطبعة الحلبيّ، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م).

القشعميّ، محمَّد بن عبد الرَّزَّاق

- معتمَدو الملك عبد العزيز ووكلاؤه في الخارج (بيروت: مؤسَّسة الانتشار العربيّ، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م).

كوثرانيّ، وجيه

- الفقيه والسُّلطان، جدل الدِّين والسِّياسة في إيران الصَّفويَّة ـ القاجاريَّة والدَّولة العثمانيَّة (بيروت: دار الطَّليعة، ٢٠٠١م).

لابدوس، إيرا

- مُدُن إسلاميَّة في عهد المماليك، ترجمة عليّ ماضي (بيروت: الأهليَّة للنَّشر والتَّوزيع، ١٩٨٧م).

مبارك، زكيّ

- المدائح النَّبويَّة (بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م).

متز، آدم

- الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرَّابع الهجريّ، ترجمة محمَّد عبد الهادي

أبو ريدة (القاهرة: مكتبة الخانجيّ، بيروت: دار الكتاب العربيّ، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م).

المزينيّ، سليمان بن عطيَّة

- ديوان سليمان بن عطيَّة المزينيّ، تحقيق عبد العزيز بن فرج الشَّنتوف، اعتنى بتحقيقه وإخراجه بندر بن عبد الله بن سليمان العطيَّة (الرِّياض: د.ن، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م).

المفضَّليّ، مشعل بن مهجِّع

- الصِّلات الحضاريَّة بين جبل شمَّر وجنوبيّ العراق، دراسة تاريخيَّة في الجوانب الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعِلْميَّة والثَّقافيَّة ١٢٥٠ ـ ١٣٤٠هـ = ١٨٣٥ ـ ١٩٢١م (بيروت: جداول للنَّشْر والتَّرجمة والتَّوزيع، ٢٠١٤م).

مقدسيّ، جورج

- نشأة الكُلِّيَّات: معاهد العِلْم عند المسلمين وفي الغرب، نقله إلى العربيَّة محمود سيِّد محمَّد (القاهرة: مدارات للأبحاث والنَّشر، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م).

المقدسيّ، أبو عبد الله، محمَّد بن مفلح (ت ٧٦٣هـ = ١٣٦٢م)

- الآداب الشَّرعيَّة، حقَّقه وضبطه وخَرَّجَ أحاديثه وقَدَّمَ له شعيب الأرنؤوط وعمر القيَّام (الرِّياض: دارة الملك عبد العزيز، الأمانة العامَّة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م).

المَلَق، عبد الرَّحمن بن عبد الله

- ديوان الشَّيخ عبد الرَّحمن بن عبد الله المَلَق (حائل: دار الأندلس للنَّشْر والتَّوزيع، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م).

ابن منصور، عثمان بن عبد العزيز (ت ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م)

- فتح الحميد في شرح كتاب التَّوحيد، تحقيق سُعُود بن عبد العزيز العريفيّ وحسين بن جليعب السَّعيديّ (مكَّة المكرَّمة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٤هـ).

المنيف، عبد الله بن محمَّد

- صناعة المخطوطات في نَجْد ما بين منتصفَي القرنين العاشر حتَّى الرَّابع عشر الهجريَّيْن (عمَّان: أروقة للدِّراسات والنَّشْر، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م).

موزيل، ألويس

- عنِ التَّاريخ المعاصر لشبه الجزيرة العربيَّة، ترجمة محمود كبيبو (لندن: دار الورَّاق، ٢٠٠٩م).

النَّقيب، منصور بن محمَّد بن عبد الله

- المدرِّسون في المسجد الحرام مِنَ القرن الأوَّل حتَّى العصر الحاضر (مكَّة المكرَّمة: المؤلِّف، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م).

نولده، البارون إدوارد

- رحلة إلى وسط الجزيرة العربيَّة ١٨٩٢م ـ ١٣٠٩هـ، ترجمة عماد الدِّين غانم، مراجعة محمود كبيبو (لندن، بيروت: دار الورَّاق، ٢٠١٥م).

الهندي، عليّ بن محمَّد

- زهر الخمائل في تراجم علماء حائل (جدَّة: مطابع دار الأصفهانيّ، ١٣٨٠هـ).

هورويتز، نيمرود

- أحمد بن حنبل وتشكُّل المذهب الحنبليّ، الوَرَع في موقع السُّلطة، ترجمة غسَّان عَلَم الدِّين، راجع النَّصّ على المصادر الأصليَّة وقَدَّمَ له رضوان السَّيِّد (بيروت: الشَّبكة العربيَّة للأبحاث والنَّشر، ٢٠١١م).

الهويمل، حسن بن فهد

- اتِّجاهات الشِّعْر المعاصر في نَجْد (بريدة: نادي القصيم الأدبيّ، ١٤٠٤هـ).